ملوثات البيئة الفكرية
(رؤية إسلامية)

بقلم: د/ عمار جيدل (*)

مقدمة

البيئة الفكرية من حيث هي ليست سوى الوسط الفكري الذي تتحرك فيه الأفكار، وتتفاعل مع الواقع المعيش بجميع مكوناته، أما من حيث المتعلّقات، فهي ذلك العامل المؤثر في صياغة الأفكار وتحديد المواقف من الحياة ومشاكلها على تنوع مناحيها وموضوعاتها، سواء كان هذا الموقف متصلاً بالواقع أو منفصلاً عنه وفق ما أملته تصورات هذا الإنسان أو ذاك.

ولهذا ستبقى البيئة الفكرية أهم عناصر تهيئة الظروف الموضوعية لإنشاء الأنموذج الاجتماعي المطلوب في إطار أنموذج الإنسان المتوخى، من خلال المنظومات القانونية المجسّدة في التربية والتعليم، والاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والثقافة، وسائر دواليب الحياة.

من هذا المنطلق، تظهر أهمية الحديث عن ملوثات البيئة الفكرية وفق الرؤية التوحيدية، بوصفها نظرة شاملة ومتكاملة تخضع لها جميع أفعال الإنسان السليم، في إطار تناغم جميع مكونات الكون معها.

ستبقى تلك البيئة صالحة لتحقيق ما جعلت له، إذا تفاعل معها المسلم وفق ما تقتضيه طبيعتها التي خلقها الله عليها، بشرط أن تكون بيئة سالمة من التلوث.

يتبادر إلى الذهن في هذا المقام مجموعة من الأسئلة تعبّر في إطارها الكلي عن الإشكال المركزي في هذا البحث.

كيف يكون الإنسان -من حيث هو- في الرؤية التوحيدية عنصراً مهمًا من عناصر التأسيس للبيئة الفكرية وحائلاً دون تلويثها.

(*) أستاذ بكلية العلوم الإسلامية - جامعة الجزائر.

وبالإضافة إلى ما سلف، كيف يمكن أن يكون الإنسان عنصراً من عناصر البيئة؟ بينما الشائع هو أن البيئة هى العناصر المادية المحيطة بالإنسان؟

وفى ضوء السؤالين السابقين يطرح السؤال الآتى: هل للرؤية التوحيدية تصور خاص لأصل البيئة التى خلق عليها الإنسان؟ وما هى أهمية تلك البيئة فى تحقيق الغاية من وجود الإنسان؟ بل وما هو دورها فى تهيئة الظروف البيئية فى جانبها الفكرى.

تمهيد

يريد الإسلام من خلال نظرته التوحيدية لتأسيس بيئة فكرية تساعد على تثمين استعدادات- البيئة الفطرية فى جوانبها المتعددة[1]- الإنسان المتنوعة والمختلفة، وتتوخى تحقيق مقاصده وفق خطة تجعل الغاية النهائية -عبادة الله تعالى- محركًا رئيسيًا فى بناء الحضارة الإنسانية الراشدة، وقد جعلت من غايتها النهائية فى الدنيا تحقيق إنسانية الإنسان، فكان من مقاصد دور الإنسان، وفق النظرة التوحيدية السعى نحو الإنسانية فى السلوك الفردى والاجتماعى.

وتحقيق هذه المقاصد النهائية والمرحلية، يقتضى وجود بيئة فكرية -فى أصل الإنسان ووسطه الاجتماعى- تساعد على إنتاج نخب تحمى المقاصد وتعمل على إشاعتها، بمعنى حمايتها من جانبى الوجود والعدم كما يقول الشاطبى[2].

وتماشيًا مع تلك الغايات، فى إطار نظرته المتناغمة مع الكون بجميع مكوناته، خلق الله الإنسان مزوّدًا فى أصل خلقته بمثمنات تلك البيئة، بل وزوّد بعوامل نفسية ومعرفية واجتماعية تيسّر له الحفاظ على البيئة والحيلولة دون تلويثها، وجماع تلك العوامل الفطرة الإنسانية التى فُطِر الإنسان عليها فى أصل خلقته.. فما هى الظروف البيئية التى توفرها الفطرة وفق النظرة التوحيدية؟

---

(١) البدنية والاجتماعية والنفسية والعقلية والدينية.

(٢) الموافقات، الشاطبى، جـ٣، خصصه للكتابة عن مقاصد الشريعة.

أولاً: النظرة التوحيدية وتجلياتها

١- النظرة التوحيدية

محور نظرة الإنسان المسلم للكون مبدأ التوحيد، وهو أساس العقيدة الإسلامية، ومحرك فعاليتها المعرفية والفكرية والسلوكية والنفسية والاجتماعية، إذ تنسحب على جميع ميادين الفعل الإنساني، حتى صار بمقدورها تحويل الأفعال العادية إلى عبادات بالنية، ولهذه النظرة امتدادات جلية في علاقة الإنسان بربه، وموقفه من الكون، وصلته بأخيه الإنسان، ومن ثمّ كان للنظرة التوحيدية تجليات عدة هي:

٢- الجانب الإلهي في النظرة التوحيدية

أساس فاعلية الإنسان وإنسانية علاقته بالآخرين التوحيد في جانبه الإلهي، إذ يعتبر التوحيد حجر الزاوية في العلاقة بين الإنسان وسائر مكونات الكون، فتوحيد الخالق في ذاته وصفاته وأفعاله يحرر الإنسان الموحد من الخوف، ويمده بعناصر البقاء والقوة من خلال ربط قلبه بالقوي الذي لا يضعف، والغني الذي لا يفقر ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[فاطر:١٥]. وهكذا يكون التوحيد من هذا الجانب منسحبًا على جميع ميادين الفعل الإنساني، وراسمًا لعلاقات إنسانية في الميادين الاجتماعية، والسياسية، والفكرية، حتى جعلت ديمومة التوحيد في النفس الإنسانية متأثرة وجودًا وعدمًا بدرجة تحقق غاياته وآثاره على مستوى الفعل اليومي، أي درجة الإيمان مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمدى فاعلية المؤمن في تغيير العالم على وفق مراد الله - تعالى-، ويؤكد ذلك جعل الشارع تحصيل ثواب العبادة بتحقيق العبادة لأصل أبعادها الوظيفية: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له» (رواه أحمد في الزهد عن ابن مسعود موقوفًا، ورواه ابن جرير عنه مرفوعًا).

٣- الجانب الإنساني:

النظرة التوحيدية للإنسان تبيّن أن أصل بني الإنسان واحد يرجع إلى أب واحد «آدم»، وتوالدوا بطريقة واحدة، وهذا يؤصل لأفكار رئيسية مفادها أن الإنسان فعل من

أفعال الله الكونية، خلق جميع أفراده من مادة واحدة -تراب-، جعل تخلقهم على نسق واحد (التناسل)، ويصيرون إلى مصير واحد، وهو ما يجعل الإنسان أو النوع الإنساني مصون الكرامة محفوظ الجانب في كل أحواله، بصرف النظر عن انتمائه العرقي أو الجنسي أو الترابي، إذ الأصل في النظر إليه جوهره، أي ما هو به إنسان، وهذا يؤسس النظرة التوحيدية للإنسان، ويدعوهم للعيش في كنف المساواة وجوّها.

ويقرر هذه الحقيقة ويؤكدها تصوير القرآن الكريم للإنسان، فهو مخلوق مكرّم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، فكان الإعلان الإلهي عن جعله خليفة تنبيه وإعلام لهم بهذه الوظيفة، وهي وظيفة شاملة لجميع بني آدم؛ لهذا كان التكريم عامًا بالنسبة لأفراد البشر، ومنسحبًا على جميع مكونات الإنسان، فهو كريم ونفيس وغير مذلول ولا ذليل في صورته وحركته.. وخلاصة ذلك أن الإنسان مفضّل على كثير من الخلوقات، بعقله وإرادته، ومن جهة أخرى هو كائن تافه (من ماء مهين) خُلق من تراب ثم من سلالة من ماء مهين، وإن طال به العمر عاد إلى الضعف الذي كان عليه في البداية، ومع ذلك يغلب عليه التكبّر والتعجرف، قال تعالى منبّهًا ومرشدًا: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق:٥-٧]. ويعتبر تنبيه الإنسان بهذين الأمرين من مقاصده بعث الفاعلية الحضارية بوظيفته.

وهكذا في النظرة التوحيدية يظهر جليًا أن جانبها الإنساني يقرر مجموعة من الحقائق، أولها أن الإنسان كائن مكرّم، وغفلته عن تلك الميزة توقعه في حضيض التفاهة المتعلقة أساسًا في تغليب الجانب الأرضي منه على الجانب السماوي أو الروحاني، بمعنى إذا نسي تكريمه وقع تحت طائلة الغرائز وسلطانها، وبهذا تغيّب أصل ما جعلت له تلك الغرائز والأشواق، فينتقل الإنسان من طور الإنسانية إلى طور البهيمة الضارية المفترسة.

كما أنها من جانب آخر تقرر حقائق ذات تأثير عظيم في تهيئة جو الحوار والتفهم والتعاون بين البشر، ويتجلى هذا الأمر فيما يأتي:

التوحيد الإلهى يجسد فى جانبه العقدى أن الله موصوف بكل صفات الكمال، منزّه عن جميع صفات النقص، وهذا يقتضى أنه سبحانه وتعالى غنى ونحن الفقراء إليه، وهذه المعرفة سواء فى جانبها المعرفى البحت أو فى جانبها الجوانى، تؤسس لبيئة فكرية تساهم فى تحسين أداء الإنسان فى جميع ميادين حياته، ويتلخص هذا فيما يأتى:

١- البشر جميعًا من أب واحد، فلا تفاضل بينهم، بل هم إخوة ينبغى أن يكون التعاون والتآزر على المعروف والتقوى شرعة أساسية تحكمهم، كل ذلك بسبب علمهم بأبوة واحدة.

٢- البشر ينتهون فى أصل مادة خلقهم إلى أب واحد خلقه الله -تعالى- من تراب، فمادة خلقهم واحدة، وبالتالى لا يحق لأحدهم أن يحقر أخاه أو أن يستخف به؛ لاشتراكهم جميعًا فى مادة الخلق.

٣- توالد البشر بطريقة واحدة (التناسل البشرى)، وهذا يقتضى التساوى المطلق بينهم وخاصة من جهة الإحساس بالتكريم الإلهى، ويكرّس هذا أن مدة الحمل بكل فرد منهم واحدة إلا ما شذّ.

٤- الإحساس بالجمع بين كونه كائنًا مكرّمًا من جهة، وتافهًا من جهة أخرى، بمثابة تذكير دائم لبنى آدم، فمن أهين أو قبل الاستهانة، فليتذكر أنه كائن مكرم، ومن رام التكبّر على بنى آدم فليتذكر أنه مخلوق تافه خلق من ماء مهين، وهو حين يتذكر ذلك يسقط القناع وتطرد الطاووسية التى ركبته أو ركبها، وأحسن الأوضاع التوازن بين الأمرين.

التذكير بهذه المبادئ المستقاة من العقيدة الإسلامية سعى مستمر لإبقاء البيئة الفكرية طاهرة من الملوثات، وهو فى ذات الوقت عمل على تطهير ما كان ملوثًا منها؛ لأن فقد تلك المبادئ حين مباشرة العمل الاجتماعى أو السياسى أو الحضارى يوقع المسلم تحت طائلة سلطان الشهوات والغرائز، وبذلك يفقد إنسانية تصرفاته، ويضيع أصل الهدف من وجوده.

ويعتبر التوحيد فى جانبه المشار إليه من أهم محددات التفكير فى جانبيه المتعلقين بالموضوع والمنهج، فلا حجر على التفكير، ولا حجر على الاختيار والتعبير، وبهذا يتحقق للباحث التحرر من عوامل تعتبر من مكبلات الإدارة البشرية، لعل أهمها:

١- الخوف فى الموضوع أو المنهج باعتباره من أهم موانع البحث العلمى الموضوعى، ويظهر هذا الأمر فى عدة أشكال وأنماط لعل أهمها: مراعاة السامع حين تبليغ البحث فيخضع لشروطه المحددة سلفًا، وبهذا لا يزيد الباحث أن يكون عربة فى قاطرة مجرورة محددة الأهداف والغايات، والسامع فى هذا المقام قد يكون سلطة علمية وقد يكون سلطة سياسية أو طلبة أو مجتمعًا أو...

٢- الزهو بالعلم أو المنصب أو الجاه أو الدرجة العلمية، فيخضع الباحث السامع إلى ضغط الألقاب، فيكون الاستحضار الدائم للألقاب حين الخطاب مانعًا من التوجه مباشرة إلى الموضوع المبحوث ويقرب من هذا الضغط بالمؤلفات أو ما شبهها.

٤- الكون من النظرة التوحيدية:

الكون فى النظرة التوحيدية مخلوق لله -تعالى- كالإنسان، سخره له وجعله فى خدمته بشرط أن يأتيه باسم الله بواسطة ما منحه من استعدادات عقلية وبدنية، ووفق سنن الله -تعالى- فى خلقه[١]، وتؤكد مجموع مظاهر الكون تميز الإنسان عن سائر المخلوقات تميزًا ذاتيًا بما استودع من استعدادات، وتتميزًا وظيفيًا بما كلفه الله -تعالى- به "التكليف بعمارة الكون وفق مراد الله لأنه مخلوق مكلّف مسؤول".

يُستَشَف مما سلف أن للإنسان صلة وطيدة بالكون، ومبنى ذلك منزلة الإنسان فى الكون نفسه، وتتجلى فى النقاط الآتية:

١- وحدة الإنسان والكون فكلاهما مخلوق لله -تعالى-، إذ تكرم عليهما الخالق بعناصر الوجود والبقاء.

(١) الإسلام ومتطلبات التغيير الاجتماعى، محمد حسين الطبطبائى، ص٢٩.

٢- الإنسان كسائر مكونات الكون محكوم بقوانين يسير وفقها، وليس له أى استقلال عن الظواهر الكونية وقوانينها، فهى مؤثرة فى وجوده وبقائه بوصفها الخزان المعرفى والغذائى لجميع حاجاته، وهو بدوره مؤثر عليه من جانب بقائه صالحًا أو طالحًا، نافعًا أو ضارًا.

٣- الإنسان والكون مشتركان من حيث المصير، إذ يتحركان معًا إلى نهاية قدرها الله -تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[المائدة:١٨].

٤- وحدة من حيث المالك والمسير

وفى ضوء ما سلف يتبين أن للإنسان فى التصور التوحيدى صلة وثيقة بالكون، تتجلى فيما يأتى:

(أ) صلة اعتبار وتأمل وتفكر:

حيث يعتبر الكون وفق التصور الإسلامى مسرحًا للتأمل وموضوعًا عظيمًا للتفكر، بدليل توظيف القرآن الكريم لألفاظ مشجعة على إعمال الحواس فى الكون (نظر، بصر، ومشتقاتهما..) كما وظف ألفاظًا تحث على التفكر والتأمل فى الكون (يعقلون، ويتفكرون، ويتدبرون، ويوقنون، ويفقهون...).

(ب) صلة استثمار وتسخير وتذليل:

تبدو صلة الانتفاع والاستثمار والتسخير واضحة جلية فى القرآن الكريم: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[النحل:٥-٦]، إنها خطابات تدفع الإنسان وتحفزه ذاتيًا وموضوعيًا على استثمار الكون وتسخيره، باعتباره نعمة إلهية خلقت للاعتبار والتدبر والانتفاع والاستثمار، بشرط التعامل معها بما منح من قدرات عقلية وعلمية وبدنية ونفسية[1].

يتجلى مما سلف أن الرؤية التوحيدية للعالم تؤسس -وبما لا يدع مجالا للشك فيه

(١) نظام الإسلام عقيدة وعبادة، محمد المبارك.

من خلال نظرتها للإنسان- لبيئة فكرية متميزة عمدتها الإنسان المكلف بعمارة الكون وفق مراد خالقه، وهذا يقتضى التعامل مع الكون فى إطار تلك الوظيفة أولا، وفى كنف الحفاظ على أصل البيئة التى خلق عليها من حيث ثانيًا.

فى ضوء ما سبق، وفى إطار الخطة التى رسمناها، سأعرض أصل البيئة التى خُلق عليها الإنسان وأثرها فى تهيئة البيئة الفكرية من خلال الحديث عن إصلاح التصورات؛ لأن إصلاح الفكر لا بد أن يقوم على عقيدة صالحة"[1] بمفهومها الإيمانى الجامع بين نباهة العقل وحضوره من جهة، وخشوع القلب من جهة أخرى، وبهذا تهيئ الإنسان المسلم فكريًا للتفاعل الموضوعى والإيجابى مع الكون.

ثانيًا: إصلاح التصورات أساس إصلاح البيئة الفكرية

الفكر كما مر معنا، هو تفاعل العقل مع الواقع المعيش بجميع مكوناته، لكن هل يمكن التفاعل مع هذا الواقع بغير تصور كونى مسبق؟

النظرة التوحيدية وغيرها من التصورات والعقائد تحدد الفكر وترسم سيره، وتشحن قلب المسلم بشحنات تدفعه دفعًا فى مسار تحقيق المسلم الإيديولوجى أو العقدى بواسطة الفكر سواء فى عالم الأشياء أو فى عالم الأشخاص، ويمكن تجلية هذا الأمر من خلال الحديث عن أصل البيئة التى خلق عليها الإنسان وأثرها فى استنطاق الأوامر والنواهى الإلهية، وتمثلهما فى الحياة اليومية بجميع مضامينها.

١- أصل بيئة الإنسان من حيث هو:

خلق الله الإنسان على الفطرة فى جانبيها المعرفى والدينى، فقد "خلق الله - تعالى- الإنسان على الحنيفية السمحة فأجلته الشياطين عنها"[2]، وما ذلك إلا بمثابة إفساد لبيئته الأصلية، ويشهد له أيضًا حديث الفطرة: «فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو

(١) إصلاح الفكر الإسلامى، طه جابر العلوانى، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ص١٩.

(٢) ورد هذا المعنى فى جزء من خطبة النبى ﷺ فيما أخرجه مسلم: "ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا..».

يمجّسانه»[1]، فأصل البيئة التى خُلق عليها الإنسان قابلة للتلوث والتغير، ومن حكمة الله أن جعل عودته إليها بواسطة الفطرة المعرفية (العقل الفطرى)، فيذكّر الإنسان بأصل ما جعل مركوزًا فيه من المعارف وأكبر شاهد على ذلك أساليب القرآن الكريم فى التذكير، الجامعة بين مخاطبة العقل والوجدان فى ذات الوقت.

وتركيز النظرة التوحيدية على أصل البيئة التى خُلق عليها الإنسان من حيث هو، يدل على أنها أساس التعامل مع الإنسان والكون، إذ الغفلة عنها مهيئة لبيئة فكرية خاصة منافية لذلك الأصل المشار إليه، بل وتنذر بخطر كبير على البيئة بجميع مكوناتها والفكرية منها على وجه الخصوص، بما يجعلها ناقلة للإنسان من طور الإنسانية حين الغفلة إلى طور البهيمة الضارية؛ لأن الفطرة أساس فكرة التكريم، ومن ثم كانت لها أهمية عظيمة فى تهيئة البيئة الفكرية.

وفكرة التكريم الإلهى للإنسان تجسّد التذكير بأصل البيئة الفكرية والنفسية التى وُجِد الإنسان عليه فى أصل خلقته، كما تذكره بوجوب العودة إليها، بتهيئتها من جديد فى جانبيها المعرفى والتربوى، وينتج هذا التذكير آثارًا عظيمة على العقل والقلب، يمكن تلخيصها فيما يلى:

٢- آثار فكرة التكريم فى تهيئة البيئة الفكرية:

(أ) الآثار المعرفية:

وتشمل: اكتشاف منزلة الإنسان فى الكون، والتحرر المعرفى من الأساطير، وتشجيع الروح النقدية، وتدفع إلى التبليغ بعد الاقتناع، وإشباع الفضول.

(ب) الآثار التربوية:

وتشمل: رفض الإذلال أو الذل، ونشر التكريم والتأسيس للتفكير الحر، ورفض فكرة التمييز بين البشر، ورفض الاستخفاف بالآخر، والدفاع عن المستضعفين.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه "كتاب الجنائز".

٣- آثار الرؤية التوحيدية فى تهيئة البيئة الفكرية:

سبق وأن أشرنا إلى أن البيئة الفكرية تتناول أمرين، أولهما يتناول الاستعداد المعرفى، ويتناول الثانى الاستعداد التربوى، ويشكلان فى إطار تناغمى الدعوة إلى الحفاظ على البيئة والتعامل معها وفق شروطها الموضوعية، واستثمارها وتسخيرها وفق ما خُلقت عليه من استعدادات تجعلها مهيئة للتثمين، والتسخير، والاستثمار.

ويمكن تلخيص ما سبق الإشارة إليه فيما يلى:

آثار النظرة التوحيدية للكون على البيئة الفكرية:

(أ) الآثار المعرفية:

وتشمل: الحقيقة الموضوعية للكون، وتبطل فكرة العداوة، وترسّخ فكرة الاستثمار، واستعلاء الإنسان، وفرصة التأمل والبحث، وتشجيع العلم التجريبى.

(ب) الآثار التربوية:

وتشمل: التعامل الإيجابى مع الكون، والنظرة الواقعية، وإصلاح التصورات، وتنمية إرادة البحث، والصبر على البحث، وأداء حق الله -تعالى- فيها.

إذا كانت البيئة الفكرية فى أصلها على وفق ما صورنا، فما هى ملوثاتها؟ بيِّن مما سبق أن الملوثات تتناول أمرين رئيسيين، يتناول أولهما ملوثات البيئة الأصلية للإنسان، ويتناول ثانيهما نظرة الإنسان إلى الكون والحياة؛ لهذا سأعرض المسألة من الزاويتين المشار إليهما فى نسق واحد، وألحق بهما الملوثات المتعلقة بغياب المعرفة، وأختمها بالملوثات النفسية والسلوكية.

ثالثا: ملوثات التصورات التوحيدية

١- مدخل عام

قررنا فيما سبق أن الله -تعالى- خلق الخلق على الفطرة فى جانبى المعرفة والدين بما يحمله من مضامين تربوية وأخلاقية تعرف بأخلاق الفطرة.

ويظهر تلوّث الشق الثانى بما يعرف فى العقيدة الإسلامية (التصورات النظرية) بمضادات التوحيد (الشرك، والنفاق، والكفر،..)، وإذا تلوث أصل الإنسان بمثل هذه الأمراض فإن مجموع أعماله ستنصبغ بمطلبات هذه المضادات، فتتأثر أعماله العلمية ومواقفه الاجتماعية، بل ويفوق ذلك ليؤثر فى الأداء الحضارى العام بما يحمله من أثر على الفكر والتفكير.

ولبيان ذلك اخترنا النماذج الآتية:

الشرك والكفر، بوصفهما من مضادات التوحيد ومن الملوثات الأساسية لأصل ما خُلق عليه الإنسان، يؤثران فى الموقف الفكرى وتفسير الظواهر السننية (الطبيعية) والإنسانية، كما يؤثران أيما تأثير فى الموقف السلوكى المؤسس على هذا النمط من التفكير، ويمكن تلخيص هذا الأمر فى المناحى الآتية:

١- تفسير الظواهر الكونية فى جانبيها الشيئى (عالم الأشياء)، أو الإنسانى (عالم الأشخاص) بمركزية الإنسان، ينجر عن قبول هذا الرأى كمسلّم نظرى صحيح عدة أمراض لها تأثير كبير الأثر على تلويث البيئة الفكرية التوحيدية، لعل من أهمها: ظاهرة النفاق فى جوانبها المتعددة والمتمظهرة أساسًا فى الموقف السياسى والثقافى والاجتماعى، بل ويجاوز ذلك فيؤثر على العرض الموضوعى للفكر نفسه.

٢- اتخاذ مواقف اجتماعية، وسياسية منسجمة مع تلك التصورات مما يجعلها مؤثرة على الأداء الحاضر والمستقبل للفكر، بل ويجاوزه إلى تلويث البيئة الفكرية سواء فى تفاعلها مع الفكر أو فى تهيئة الجو الصحى لصناعة الأفكار الفاعلة فى الحاضر والمستقبل.

ولتوضيح المسألة أكثر اخترت التفصيل فى النفاق من جهة كونه من مضادات التوحيد المؤثرة على التصورات والأعمال البدنية والعقلية والنفسية، بل يجاوزها بالتأثير على تفسير الظواهر الإنسانية والفلسفية والسياسية والحضارية، وحتى ذات الطبيعة الشيئية أحيانًا.

٢- تجليات أثر النفاق فى تلويث البيئة الفكرية:

تفهم حركة النفاق فى إطار آثارها الوخيمة على تلويث البيئة الفكرية من زاويتى بعديها النفسى والاجتماعى بوصفها العناصر الرئيسية المحددة لعمل الفكر، والمانعة دون انطلاقته وتفاعله الإيجابى والموضوعى مع عالم الأشخاص.

(أ) يضطر البشر من منطلق الخوف من اكتشاف حقيقتهم إلى التخفى إلى حين زوال المخيفات، فإذا زالت دفعوا الأستار وكشفوا عن حقيقتهم، والتستر ليس عملية شخصية لا تطال الآخرين، بل تؤثر فى الموقف الفكرى مما يقع فى هذه البلاد أو تلك.

(ب) يترجم الموقف النفسى السابق فى موقف اجتماعى، فيضطر المنافق إلى مجاراة الأحداث والانصياع لها إلى حين، ويتجلى الموقف المنافق فى العمل العلمى، والسياسى، والثقافى، والاجتماعى كالتالى:

* الخضوع لمطالب المستمعين سواء كانوا سلطة أو معارضة، أو شعبًا، فيتفنن هذا النمط من الباحثين فى تأييد السلط السياسية، بل قد يجاوزونه إلى إبطال آراء جميع مخالفيها، وفى ذلك أكبر التجنى على البحث العلمى والمطارحات الفكرية.

* التخاذل عن نصرة البحث العلمى الموضوعى، وبالتالى التخاذل عن نصرة الدين.

* إثارة الشائعات المدمرة بهدف توجيه الفكر للتفكير فى مشاكل وهمية، وشغله عن القيام بدوره الحضارى المنتظر منه فى إطار التصور التوحيدى.

* التخريب الداخلى لعالمى الفكر والأشياء، من خلال التركيز على التحضير النفسى للمخاطب.

* تأسيس المؤسسات الضرار بغرض توجيه الفكر، ثم الهيمنة على سوق التوجيه أو التشويش على المؤسسات الأصلية أو التشكيك فيها على الأقل.

* إذا فشلت كل محاولات الاستقطاب سيضطر النفاق إلى إعمال مسلك الاستفزاز الفكرى بغرض استنزاف الطاقات فى معارك وهمية الرابح فيها خاسر، وهو بمثابة تحريض على استعمال العنف وفق قاعدة الضارب المستعطف "ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى"، فيظهر المنافق بمظهر المظلوم ليس لهدف سوى تأليب الرأى العام على المظلوم الحقيقى، وأكبر شاهد أيامنا الحبلى بهذه النماذج من الظلمة.

* التمكين للنفاق يبعد الكفاءات الفكرية عن مقاليد التوجيه فى المجتمع، بل يبعدهم من الميادين التى يحسنها غيرهم، فيصبح نيل منصب التوجيه والإرشاد -بل وحتى الحقوق- استعطافًا لا استحقاقاً، فيمكن للرداءة الفكرية والانتهازية، بسبب وقوع مقاليد الأمور فى أيدى المنافقين، فيعملون على تهيئة جو ملائم لبقائهم ومساعد على ديمومة أفكارهم.

رابعاً: الملوثات المتعلقة بالمعرفة

تظهر ملوثات البيئة الفكرية فى جانبها المعرفى فى غياب أو تغيب العلم وهيمنة روح الجهل فى علاقاتنا المعرفية، ومواقفنا الاجتماعية، كما يتجلى أيضًا فى هيمنة التقليد، والوقوع تحت طائلة المكبلات الإيدلوجية، والاستخفاف المعرفى أو قبوله، وأحادية المنهج رغم تعدد العلوم من حيث طبيعتها وحقيقتها.

١- الجهل وأثره على البيئة الفكرية

يعد الجهل من أهم أسباب عدم قيام الأمم بأصل وظائفهم، والسير فى طريق الشرور، الجهل هو الذى يصور الأشياء على خلاف حقيقتها، وبذلك يوجه الفكر من خلال تهيئة بيئة فكرية جاهلة- إلى ميادين مخصوصة فى الحوار والنقاش والموقف الاجتماعى العام، بل ويتعداه إلى الأداء الحضارى، فتشل الطاقات وتستنزف قوة الأمة فى معارك وهمية.

إن الجهل يصور التطاول على الفكر شهامة وبسالة وشجاعة، ويصور خدمة الأجنبى إنسانية وفخراً وشرفًا، بل قد يجاوز إلى أخطر من ذلك فيغيب الإحساس بتلك الجرائم المقترفة فى حق الأمم والشعوب بسببه؛ لهذا فالجهل "أم الشرور والأمراض، بل إن كل بلاء يحل على أى أمة من ابتداء العالم إلى نهايته إنما هو وليد هذه الآلام وثمرها"[1]، ومن ثم فالجهل رأس ملوثات البيئة الفكرية، بوصفه سبب العزوف عن التفكير فى طلب العلم فضلاً عن تجسيد متطلبات العلم أو نتائجه، كما يعد من أهم الحوائل دون البحث الفكرى الجاد والهادف، حتى ليعد هذا النمط من التفكير السليم ضربًا من التشويش والجهل وفق ما ورد فى المثل السائر "رمتنى بدائها وانسلت".

٢- هيمنة التقليد

يهيمن على عقل المسلم منذ أمد بعيد القراءة التاريخية وخبرات أسلافه، بفعل شيوع التقليد والوقوف دونه[2]، فأصبح دور العقل المسلم التفنن فى الرجوع إلى الماضى بوصفه أنموذجًا كاملا فى السياسة والحكم والتعلّم والتفاعل مع الواقع المعيش، والفكرة فى حقيقة الأمر ليست باطلة بإطلاق، بل هى خطيرة من حيث عملها على دعم الوجود التاريخى المنغلق على حساب الوجود الحضارى المطلوب، إذ رسخ فى قلب المسلم المعاصر ونفسه أنه لا صورة ممكنة ومتاحة للعيش فى كنف الإسلام إلا تلك الصورة التاريخية المنقولة، وأى خروج عنها يعد خروجًا عن الإسلام[3].

فتحوّل الإسلام -الذى هو فى حقيقة أمره تحول دائم من التقليد إلى الأصالة[4]-

(١) "ضد الاستبداد"، توفيق السيف، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء وبيروت، ط١/ ٣٤٤، ١٩٩٩ .

(٢) انظر: ما قاله ريتر عن التقليدية وتأثيرها فى التراجع الثقافى الإسلامى، "الإسلام المعاصر"، رضوان السيد، دار البراق للنشر، تونس، الطبعة الأولى، ص٢١٥.

(٣) لا يذهب بك الخيال بعيداً فتظن أن الجيل الأول لم يكن أنموذجًا يحتذى فى تفاعله مع الواقع المعيش، بل المرفوض أن نحاول بعث وضعهم بمكوناته الدينية فى عصر غير عصرهم، وهذا بمثابة بعث ما لا طائل منه.

(٤) "الإسلام ومستقبل الحضارة"، صبحى الصالح، دار الشورى، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، ص٣٣٩.

إلى تاريخ، عوض التفاعل معه بما يقتضيه من مراجعة دائمة لخبراتنا الفقهية والاجتماعية والفكرية بناء على ما ثبت من نصوص وصحّ من اجتهادات، فى إطار ما طرأ علينا من إكراهات.

فالتقليد فى الأوساط العلمية الأكاديمية من أهم موانع الانطلاقة الفكرية المنتظرة من جهة، وأهم ملوثات البيئة الفكرية من جهة توجيهها إلى ميادين مخصوصة فى البحث من جهة ثانية، والحيلولة دون ولوج ميادين بحثية يفرضها الإكراه الحضارى فى الواقع المعاصر.

٣- المكبلات الإيديولوجية (الأفكار المسبقة)

يُساق الإنسان فى ميادين البحث -شاء أم أبى فى كثير من الأحيان- بقناعته المسبقة، فيقرأ ويحلل كل ما تبلغه عينه بما رسخ فى نفسه ووقر فى قلبه من أفكار مسبقة، وفى ذلك أكبر بلاء على العلم والمعرفة، فتكون الآثار المسبقة ملوّثة للبيئة الفكرية بوصفها مانعًا قويًا من القراءة الموضوعية؛ لما تقتضيه من دخول الباحث مشحونًا بأفكار تسوقه سوقًا إلى نتائج محددة سلفًا، ولخطورة هذا الأمر حذّرنا الشارع الحكيم من الوقوع تحت طائلته، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[الإسراء]، أى "إنك أيها الإنسان تسأل عما تسنده إلى سمعك وبصرك وعقلك.. وهذا أدب خلقى عظيم، وهو إصلاح عقلى جليل يعلم الأمة التفرقة بين مراتب الخواطر العقلية بحيث لا يختلط المعلوم والمظنون والموهوم، ثم هو أيضًا إصلاح اجتماعى جليل يجنب الأمة من الوقوع والإيقاع فى الأضرار والمهالك من جرّاء الاستناد إلى أدلة موهومة"(١).

من منطلق ما سبق بيانه يتجلى أن الأفكار المسبقة من أهم ملوثات البيئة الفكرية من منطلق شرعى وعقلى؛ لأنها من العناصر التى تعيق سير العقل والفكر سيراً عاديًا وموضوعيًا.

ولعل من أهم الأمراض الفكرية المنبثقة عن الرواسب الفكرية، الاستخفاف المعرفى أو قبوله، كما يظهر فى أحادية المنهج المحكّم فى جميع العلوم والمعارف.

---

(١) "التحرير والتنوير"، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، ج١٥/ ١٠١.

(أ) الاستخفاف المعرفى أو قبوله

يعد الاستخفاف بالآخر فى ميدان المعرفة من أهم أسباب عدم تصحيح الأخطاء الفكرية أو التفكير فى تصحيحها على الأقل، وهذا الملوث لا يقل شناعة عن قبول الاستخفاف بالعقل والفكر، بل يعدان من العناصر التى تختلط فيها العناصر النفسية (الاستكبار وقبول الاستخفاف) بالعناصر المعرفية، فالذى يستخف أو يقبل استخفاف الآخرين فى الميدان المعرفى لا ينتظر منه أن يكون على خلاف ذلك فى الموقف الاجتماعى والسياسى والفكرى وحتى الحضارى.

(ب) أحادية المنهج

يهيمن على عقول بعض الباحثين والمؤلفين أن العلم واحد وموضوعه واحد لا يتعدد، ويخلص إلى نتيجة مفادها أن منهج بحث ودراسة العلوم والأفكار واحد، بُلى الفكر بهذا الداء فى فترات منقطعة من تاريخ الإنسانية، ففسرت كل مسائل العلم والفكر فى حقبة غلبة التحليل المادى للتاريخ بهذا المنهج، واستولى التفسير التجريبى على عالمى الفكر والشعور حين هيمنة هذا المسلك التحليلى على عقول الناس فى فترة من فترات التاريخ، وهكذا ما كانت الغلبة لمنهج فى فترة من الفترات إلا وكان سيد الموقف فى تحليل كل شىء حتى ما لا ينسجم مع طبيعة ذلك المنهج، ومن نماذج هذا المسلك الإغراق فى المذهب على حساب الدين، فيرى أصحابه الدين من خلال المذهب، وقد كان -ومازال- هذا سببًا فى ضياع الولاء لله تعالى فى أعمالنا، كما كان سببًا فى فقد روح الالتزام، فضاع الإسلام فى صورته الإنسانية الحضارية من جرّاء هذه التصرفات المنبثقة عن الأحادية المتحكّمة فى عقولنا وأفكارنا وسلوكنا، ولا تتوقف أحادية المنهج عند هذا الحد بل قد تتجاوزها إلى تفسير كل أمور الكون المادية والمعنوية تفسيراً غيبيًا يلغى كل سلطة للإنسان على عالمى البناء والشهود الحضاريين، وقد يزكى هذا المسلك من قبل مؤسسات علمية هدفها صرف الباحثين عن التفكير فى البناء الحضارى، فضلاً عن المساهمة فيه بغرض تعطيل وظيفة الشهود الحضارى من خلال التشويش الإعلامى بغرض صرف الناس عن الدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى-.

٤- غياب النقد المقاصدى (الغائى)

الأصل أن يبادر الناقد قبل النقد إلى التساؤل عما يقدم نقدنا كقيمة معرفية مضافة، وماذا يقدم كموقف حضارى؟ ما هى مقاصد النقد من الناحية المعرفية والحضارية؟ بمعنى ما هى موجبات النقد من الزاويتين المعرفية والحضارية؟ ليس المقصود فى هذا المقام التعامل الإيديولوجى مع الأفكار من خلال إخضاعها لمقاصد الإيديولوجية السياسية الاجتماعية [1]، بل المقصود هو التساؤل عن البعد الوظيفى فى إطار غائية التساؤل الموضوعى عن قضايانا.

الجواب الصحيح عن السؤالين وبكل موضوعية، يشهد به السائل على نفسه (دون استجابة لداعى الخوف والضغط الأدبى أو المالى أو السياسى)، استفت قلبك فإن أفتاك فأقبل، بمعنى إن وجد إجابته عن تساؤلاته موجبة للإقدام أقدم، وإن وجد فيها غير ذلك أحجم، فالامتناع عن مساءلة النفس والفكر يعد من أهم أسباب تلوث الفكر بعناصر تمنع البحث الفكرى الموضوعى، كما هو شأن كثير من البحوث التى يساق إليها الباحث بدافع نصرة أصحابه أو إذلال غيرهم أو ما شابه ذلك، وإدراج هذا الملوث فى خانة الملوثات المتعلقة بالمعرفة؛ بسبب تسربه إلى الفكر من جهة الوسط الثقافى الذى يزكى هذا النوع من الانشغال على حساب النقد الفكرى الفاعل فى حاضرنا والمساهم فى بناء مستقبلنا، ومن ثم كان هذا العامل من ملوثات البيئة الفكرية فى شقيها المعرفى والتربوى.

خامساً: الملوثات النفسية

من نافلة القول البيان التفصيلى لدور العناصر النفسية فى توجيه الفكر، إذ فى الغالب يُساق المرء بقلبه حتى فى سير فكره وعقله؛ لهذا كانت هذه العوامل ملوثة للبيئة الفكرية حال تنكّبها عن جادة الصواب والاستسلام لرغباتها ونزواتها، ولعل من أظهر تلك الملوثات جعل الدنيا هدفًا نهائيًا من الوجود والاستبداد، وهيمنة روح التسليم للواقع، وفقدان عناصر التربية الفكرية.

---

(١) انظر: "مجتمع النخبة"، برهان غليون، دار البراق للنشر، تونس، ١٩٨٩م، ط٣، ص٢٤٥.

١- جعل الدنيا هدفًا نهائيًا من الوجود

جعل الدنيا هدفًا نهائيًا يعرّض أصحابه للوقوع تحت طائلة الغرائز، فيعمل المبتلى بها على قضاء كل ما تطلبه ولو على حساب الآخرين -وهى دائمًا كذلك-، ومادامت منافع الناس متضاربة وتحقيقها أو منع فقدانها لا يتم إلا بالفكر، فسيضطر المدافع عن منافعه إلى إعمال كل الوسائل الفكرية من أجل الحفاظ على تلك الغنائم، وبهذا الصدد سيكون فكره مقيدًا ممنوعًا من الحركة فى غير الطريق الذى رسمته له منافعه المادية، فيتحول الإنسان من جراء ذلك عن إنسانيته إلى حيوان متوحش باستطاعته فعل الأعاجيب من أجل تحقيق رغباته، وهكذا يفقد الإنسان إنسانيته لمجرد ضياع الهدف من الوجود الإنسانى، ومن كان هذا شأنه ففكره كما ترى ملوث بل وواقع تحت سلطان الدنيا تجره جرًا إلى حيث يفقد إنسانيته، وما الصراع العالمى الذى ضاع فى جوه حق المستضعفين من أفراد وشعوب وحكومات إلا بسبب هيمنة حب الدنيا عند الكبار، ويتجلى أثر ذلك على الفكر فى الازدواجية المحكّمة فى العلاقات السياسية والفكرية والثقافية بين الشعوب والدول، فما يرى حقًا فى بلد فهو ليس كذلك فى بلد آخر ولو تشابهت كل المعطيات، ودواعى معاونة هذا البلد قد تكون سببًا فى الامتناع عن معاونة بلد آخر، كل ذلك بسبب حب الدنيا الذى ولّد الكيل بمكيالين فى الثقافة والاجتماع والسياسة بل وحتى الحضارة.

٢- الاستبداد أو قبوله

يذهب العقل حين الحديث عن الاستبداد إلى الميدان السياسى مباشرة، والمسألة حسب تقديرنا أوسع من أن تحصر فى هذا الباب، وإن كنا نعيش استبدادًا سياسيًا لا ينكره إلا مكابر- مستبدون إلى النخاع من خلال علاقاتنا بطلبتنا وأسرنا وأولادنا، ومجتمعاتنا؛ لهذا لا نستبعد أن يكون كل واحد فينا ممارسًا لدور السلطة بمفهومه السلبى الذى يعنى التسلّط والقهر، بل قد يكون كل واحد منا يتصور نفسه عمليًا فوق مقام الاستدراك فضلاً عن النقد، يصدر الأوامر وما على الآخرين إلا التسليم بما يريد، فكيف لمن كان حاله على وفق ما ألمحنا أن يستغرب الاستبداد السياسى؟

والاستبداد يعد من أهم موانع المناقشات الفكرية الهادئة والهادفة لما يقتضيه من كم للأفواه وتقييد للأيدى، وبالتالى سيكون حين العمل به أو الاستجابة له ملوثًا خطيراً للبيئة الفكرية؛ لأنه يمنع البحث الموضوعى سواء فى قضايا النزاع الفكرى أو غيره، وتزداد خطورة الاستبداد على الفكر حال تلبّسه بالدين من خلال الاستدلال على ضرورته والتسليم به لشواهد نصية أو تجربة تاريخية معينة، فتتحول رغبات ونزعات وإرشادات أشخاص معينين دينا لا يجوز العدول عنه بفعل بعض المعدودين فى أهل العلم، فيصير الفكر بهذا مصروفًا عن التفكير فى مثل أصل هذه القضايا أو المساءلة عنها على الأقل، رغم ما لها من تأثير وخيم على توجيه الفكر، لما يحمله هذا الموقف من خلع نوع قداسة على أشخاص أو أفكار معينة.

إن الاستبداد بمفهومه العام -السياسى، والفكرى، والتعليمى، والحضارى- يعد ملوثًا قويًا للبيئة الفكرية، بوصفه من أهم صوارف الفكر بكل حرية فى المواضيع التى يراها ذات نفع فى الحاضر والمستقبل.

والاستبداد نفسه -حسب تقديرنا- لا يقل شناعة عن قبول الاستبداد من حيث تلويثهما للبيئة الفكرية، إذ قبول الاستبداد يترجم فى موقف فكرى يتجلى فى البحوث والمؤلفات، فيتفنن قابلو الاستبداد ففى التأييد والمرافعة عن رأى المستبد (قد يكون سياسيًا، وقد يكون معلمًا أو مثقفًا أو غنيًا أو..) ولا شك أن من كان هذا شأنه سيكون بعيداً كل البعد عن البحث الموضوعى، وخاصة فى المسائل المتنازع حولها فى عالمى الأفكار والأشخاص.

إن العقل المبرر للاستبداد "فكر قمعى لا يستطيع أن يتحمل الأفكار التى تنطوى بسهولة ضمن إطار معطى سلفًا؛ لهذا فالأفكار المخالفة مرشحة للمصادرة الدائمة؛ نظراً لما تقتضيه من تجاوز للمعطى المسلم به، وأساس هذا التحليل السلوك الوسواسى نفى الآخر عقليًا، أى رفض الآخر من خلال رفض حق الاختلاف فى وجهات النظر، ولا شك أن ذلك مقدمة للإنكار الجسدى، أى هو الشكل الأول من أشكال الاغتيال،

والانتقال من هذا الشكل الأول من القتل النفسى إلى الشكل الثانى، أى القتل المادى لا يحتاج إلى تفكير جديًا بقدر ما يحتاج إلى تجسيد القتل النظرى الممثل فى الاستبداد؛ لأنه لا يتطلب تفكيراً جديداً بقدر ما يتطلب حالة انفعالية جديدة، فبمجرد تغير مزاج المستبد يقع ما يحمد عقباه[1]، وبهذا يصبح الفكر المبرر للاستبداد ملوثًا للبيئة الفكرية، معدًا لنفوس انتقامية وظيفتها الاغتيال فى الوقت المحدد فى الظروف المحددة.

وبهذا يتحول الفكر بواسطة هذه الملوثات عن وظيفته الأصلية؛ ليتفرغ -وبشكل كلى- لمهمة تصفية الفكرة المخالفة أو تحميلها مسئولية جميع الإخفاقات، عوض العمل على تغيير الواقع الفاسد[2] والتقارب بين القوى الفاعلة فى المجتمع بهدف مواجهة الخطر المحدق بالجميع.

٣- هيمنة روح التسليم

يعتبر التسليم للواقع بجميع مكوناته امتدادًا عاديًا لفكرة الاستبداد بمفهومها العام، وقد ظلت فكرة التسليم مهيمنة على فكرنا منذ أمد بعيد، فتولدت عنها أمراض أخطر، لعل من أهمها أن يقوم الرجل منا مقام المستبد فى تثبيط العزائم، فيؤلب العامة على من رام الحديث عن التغيير فضلاً عن الذى يعمل على تجسيده.

وقد غيبت العناصر الروحية من نفسيتنا ولوّثت بيئتنا الفكرية بفعل شيوع تثبيط العزائم الذى نخر لأوصال الأمة، فلا مشجع على البحث الموضوعى وخاصة فى المسائل المخالفة لرأى شائع أو حاكم مستبد، أو عالم مهيمن على الثقافة والمال، و...، والمعينون على التزلّف والتملّق بأصحاب الجاه والسلطان السياسى والثقافى والمالى كثر، ويكاد يكون هذا المرض شاملاً جميع البيئات العربية والإسلامية، وقد شكا أحد الصالحين من هذا المرض فى بيئته، حيث قال: "هناك بيئات خاذلة مثبّطة، وهناك بيئات دافعة منشطة، وبيئتنا من النوع الأخرى، ما تنهض لواحد من بينها إلا إذا فرضته عليهم

(١) انظر: "مجتمع النخبة"، برهان غليون، ص٢٢٤-٢٢٥.
(٢) المرجع السابق نفسه.

قوة من خارج[1]، وما أظن بيئتنا العربية والإسلامية مشرقًا ومغربًا بعيدة عنها سواء فى الأداء السياسى أو الثقافى أو التعليمى.

إن التسليم بالواقع من أهم ملوثات البيئة الفكرية من جانب توطين السكوت عن البحث الموضوعى والحيلولة دون بعث التفكير الحر، لما يقتضيه من تجاوز لتكبيل الفكر وتحديد لمجالات بحثه، وجبره على السير فى مسارات محددة سلفًا من قبل الفكر الإطلاقى المجسد فى العقليتين التسليمية والمسلم بها.

٤- فقدان عناصر التربية الفكرية

تنقسم هذه العناصر إلى صنفين، يتناول أولهما العناصر النفسية من التربية، ويتضمن الثانى العناصر المعرفية فى جانبيها المنهجى المتعلق بمواضيع العلوم، وهذا يقتضى تكوينًا مستمرًا فى جميع الجوانب المشار إليها.

(أ) العناصر النفسية

أهمل المسلم المعاصر بفعل الإكراهات الواقعية ومتطلبات الحياة البائسة - بفعل الفقر عند البعض والتخمة عند البعض الآخر- كثيرًا من عناصره النفسية التى يولد مزودًا بها، وإذا به بفعل التربية الاجتماعية والمدرسية، والمنظومات القانونية، والممارسة السياسية، يكتشف بأنه لا يتمتع بقدرة على التغيير الفكرى، ثم يتحول فى قابل الأيام بفعل استثمارها الذكى من قبل المخالف- إلى فقدان القدرة على تحقيق التغيير الفكرى المنتظر، وتتحول تلك النزعة بعد أيام وبفعل التذكية الرسمية بشقيها السياسى أو الثقافى (الدينى) إلى فقدان الرغبة فى التفكير فى التغيير فضلاً عن القيام به، وهكذا يتحول إنسان المنطقة من كائن مكرّم خلقه الله -تعالى- حرًا بالتكليف إلى إنسان فاقد للرغبة والإرادة والقدرة، وكأنه مشلول على طول الخط (يأكل القوت وينتظر الموت)، يسلم أمره (لمولاه) يفعل بشأنه ما يشاء، وكأنها

(١) "قصة حياة"، ص١٧٠.

جبرية بعثت من مرقدها، ولهذا كان التسليم بفكرة التسليم ملوثًا للبيئة الفكرية وحائلاً دون انطلاقة العقل والفكر فى عالمه الرحب.

وبهذا الصدد تعتبر العولمة من أبرز القوى الخارجية المسلم بها ولها لدى البعض بوصفها عاملاً فاعلاً فى البيئة الفكرية، وقد عملت العولمة على القضاء على التنوع والتعدد فى المجتمع الدولى، والتى من خلالها تختار الصراع وسيلة للحوار (عوض الحوار الحضارى السلمى الهادئ)[1]، ويؤكد هذه المعانى عدم قبول الغربيين والأمريكان على وجه الخصوص بالديمقراطية الحضارية المعبر عنها فى حقيقة الأمر بالديمقراطية السياسية؛ لأن الفعل السياسى ليس إلا نتاجًا لفلسفة كونية مستقلة، لهذا عدّ رفض الديمقراطية الحضارية دليلاً قاطعًا على أحادية الأنموذج الذى يراد فرضه على المستضعفين.

العولمة لهذا المعنى ليست فى حقيقة الأمر إلا تسويقًا جديداً لأفكار سابقة عرفت فى ماضى الأيام بـ"الثقافة الواحدة والوحيدة"، وهى الأنموذج الوحيد للخروج من دائرة التخلف والخلوص إلى التقدم وفق بعض التصورات، وقد عبر عنها الدكتور على شريعتى بمصطلح "Monoculture"[2].

ووجه الصلة بينهما جلى حسب تقديرنا، إذ تتجلى فى العولمة المنهج العالمى الموحد للانعتاق من التخلف وولوج طريق التقدم، وقد صوّر هذا المسلك ففى طريق وحيد لا محيد عنه، حتى صور لنا أننا أمام جبرية جديدة ليس فى مقدورنا التفكير فى مواجهتها فضلاً عن مواجهتها بالفعل، فمن أراد التقدم فهذا هو المسلك[3] ولا طريق غيره، كما

(١) قد رام التبشير بهذه الفكرة عالمين أمريكيين، يرى أحدهما توقف التاريخ عند الأنموذج الأمريكى، يرى الثانى أن الصراع الحضارى ضرورة موضوعية وحضارية وفق التصور الأمريكى، انظر: "الحكمة" مجلة عراقية تصدر عن بيت الحكمة، العدد العاشر السنة الثانية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٠م، مقال سامى مهدى، "أممية ليبرالية أم نظم ديمقراطية"، ص٥٠-٥١.

(٢) العودة إلى الذات"، الدكتور على شريعتى، ترجمة: دسوقى شتا، دار الزهراء، القاهرة.

(٣) حاول ومازال الأوربيون يحاولون الخلاص من الطوق الأمريكى الذى يراد فرضه باسم العولمة، وقد تجلى هذا الأمر من خلال المشروع الأوروبى الموحد فى مجال المال والأعمال والاجتماع، بل وتعداه إلى الأنموذج الثقافى الموحد.

تتجلى فى الثانى (الثقافة الوحيدة) بوصفها المسلك الوحيد للتقدم، فصارت وفق هذا التصور الثقافة تُستورد كاستيراد المواد الغذائية، فمن أراد إمتاع الجسد فهذا طريقه الوحيد، ومن أراد التحضر والتقدم فهذا مسلكه الوحيد أيضًا (وهو طبعًا الطريق الغربى عندهم).

ومن أهم مظاهر الثقافة الوحيدة التى يُراد تبرير فرضها العلمانية والأنموذج الأمريكى للديمقراطية وحقوق الإنسان فى الأوساط الإسلامية، بشرط أن لا تكون وسيلة لديمقراطية حضارية؛ لأنها بذلك تصبح خطرًا على الأنموذج الذى يبشرون به فى العالم كله، وهى ولا شك من أهم عوامل تلويث البيئة الفكرية، إذ ليس بمستطاع للمفكرين المستقلين عن النمط الفكرى الأمريكى فى ظل النظام الموحد والوحيد كسر الطوق المسلّط على المستضعفين وفق رأى كثير من الساسة والمثقفين السائرين فى ركابهم.

يتجلى فى العاملين السابقين، التلويث المقصود للبيئة الفكرية فى العصر الحديث؛ لهذا يقال لنا ولسائر المستضعفين -وفق بعض التصورات-: إما أن تدخلوا الصف مختارين وإما ستدخلونه مرغمين، وفى ظل هذا التلويث ما الذى يجب القيام به؟ وهو السؤال المفروض أن يفكر الجميع فى الإجابة عنه بطريقة موضوعية، ولعل من العناصر الأولية للإجابة أن نبتعد عن تولى وظيفة الآخر فى تثبيط العزائم، فإننا وإن لم نتمكن من المقاومة الفعلية، يجب أن لا نجنهز على بذرة المقاومة فينا كقوة كامنة مبلّغة إلى الأجيال اللاحقة، وبهذا نكون قد قمنا ببعض ما علينا من تكاليف شرعية، وذلك يحقق أقل ما يجب علينا تجاه الأجيال اللاحقة.

والمهم حسب تقديرنا فى هذا السياق أن نؤسس لحسن السؤال الوظيفى، وإن كان الجواب التفصيلى صعب المنال فى إطار الجهود الفردية، والأهم من ذلك أن نكتشف أثر هذه الأفكار العالمية فى تلويث البيئة الفكرية؛ لهذا أدعو إلى الحذر من خطورة التسليم لهذه القوى المهيمنة على الثقافة والسياسة والاجتماع، فإننا -وإن قصّرنا فى القيام بالواجب- ملزمون شرعًا وعقلاً ومن منظور تبرئة الذمة الشرعية، التى من

متطلباتها تبرئة الذمة الحضارية، وذلك بتعهد بذرة المقاومة الفكرية فى نفوس أبنائنا وحملة ميراثنا، فلا تقوم مقام الآخر فى تسويق أفكاره ومبادئه التى يهيمن بها على العالم من جهة، وتفجير التفكير فى التحرر من جهة أخرى، فضلاً عن التجسيد الحضارى والتربوى لفكرة الانعتاق نفسها.

(ب) العناصر المعرفية

يلاحظ المسلم المعاصر غياب القراءة المنهجية لخبراتنا المعرفية، إذ يغلب على جهودنا الجانب الكمى على حساب القراءة الوظيفية الانتقائية، وبفعل أساليب التعليم غيّب السؤال المنهجى والموضوعى فى مناقشة قضايانا الفكرية والحضارية، وقد ولّد هذا النمط من التعلم والتعليم منهجًا معينًا فى الأوساط الأكاديمية، ونظرًا لغياب هذا التساؤل المنهجى فى كنف نقص فظيع فى الجوانب النفسية من التربية الفكرية، نهتم بمسائل ميّتة مميتة فى تاريخنا الثقافى، فأحييت القضايا الميتة من خبراتنا المعرفية، واشتغل الناس بها عن القيام بالتواصل الحضارى مع الأجيال بل ومع الإنسانية فى كنف الميزة الإنسانية لديننا الحنيف، إذ من أهم أبعاده ومقاصده التعامل الإنسانى وإشاعة الإنسانية فى التعامل.

ورأس البلايا فى التربية الفكرية فى جانبها المعرفى قلة الاهتمام بالثقافة العامة بجميع مضامينها، وهيمنة القراءة التماسًا للبركة على حساب القراءة الوظيفية، وقد نتج عن هذا النمط من القراءة والكتابة تغييب القراءة المساءلة المنهجية فى جميع قضايانا، وجاوزوا ذلك إلى إنكار المساءلة المنهجية والقائمين عليها بوصفها بدعة لدى البعض، ومدعاة لفتح باب موصد بإحكام لدى البعض الآخر، أو قد يترتب عليها زلزال جديد على مستوى المسلمات الفكرية لدى فريق ثالث، والقطعيات الفكرية - بفعل التاريخ والتكرر- لدى البعض الآخر، ولعل أصدق أنموذج على الدعوة لقراءة جديدة وظيفية موضوعية علم مقالات الإسلاميين، وهو موضوع شائك حسب تقديرنا يستدعى نوعًا من الحضور الإيمانى المستمر حين القراءة والكتابة أولا، زيادة إلى وقادة

فكر وتكوين منهجي رسالي (في موضوع الالتزام والتساؤل الموضوعي والمنهجي).

وبهذا الصدد يعد عدم الالتزام بهذه الضوابط تغييبًا للتقوى في جانبها المعرفي؛ لأن المسلم لا يصعب عليه استحضار التقوى في جانبها الاجتماعي والأخلاقي والأدبي، ولكن من الصعوبة أن يستحضر التقوى حين ممارسة البحث أولاً والتعبير عن نتائج ذلك البحث ثانيًا، والمسألة في غاية التعقيد؛ نظرًا للتداخل الكبير بين المذهب والدين، على مستوى التصور، ولا شك أن التوفيق في هذا الأمر عزيز جدًا، ولعل أصدق أنموذج على ذلك ما كتبه العلامة جمال الدين القاسمي في كتابيه "الجرح والتعديل" و"المعتزلة والجهمية".

سادسًا: الإعداد الفكري لمواجهة الملوثات

معلوم أن صرف دواء العلاج يكون وفق التشخيص؛ لهذا فإن مقترحنا منسجم كل الانسجام مع ما سبق تقريره من ملوثات، فنعرض عناصر الإعداد الفكري لمواجهة تلوث البيئة الفكرية على النحو الآتي:

١- عناصر الإعداد في التصورات (الإعداد الإيماني).

٢- الإعداد المعرفي.

٣- الإعداد النفسي.

١- عناصر الإعداد في التصورات:

(أ) التأثير العام

تبدأ عملية إصلاح التصورات ببيان مركزيتها في تطهير البيئة من الملوثات، فالعقيدة الإسلامية ليست من قبيل المعارف الصرف التي لا تبن قصراً ولا تهدم مصراً، بل هي محرّك النفوس للتأسيس الحضاري المنشود، إذ هي قوة الدفع الداخلية في التعلمية التغييرية على مسوى الأنفس أولاً ثم على مستوى الآفاق ثانيًا، وإذا كان للتصورات وفق النظرة التوحيدية هذه المنزلة فينبغي أن يعمل كل في دائرة عمله على ترسيخها في الضمير الشعبي والوسط التعليمي.

ويحقق هذا التصور بعداً إنسانيًا على مستوى التصرفات البشرية عامة، سواء كانت أعمالاً علمية أو سياسية أو ثقافية أو اجتماعية، فمثلاً منتهى الأهداف المحركة للأداء العملى المستمر ربط الهمة بمرضاة الله -تعالى- ومرضاة الله غاية لا تدرك مع كمال الرضا؛ لأن كل من سار فى نهجها أحس بالتقصير، وكلما أحس بالتقصير كان أكثر خدمة للمجتمع، بل كلما سار المسلم فى طريق طلب كمال الرضا كلما ازداد اندفاعًا نحو الخدمة العامة بجميع أشكالها، اجتماعية، وفكرية، وسياسية، وتربوية، وحضارية.. حتى الرياضية، من خلال الإحساس المستمر بالتقصير.

والبعد الإنسانى المشار إليه أعلاه يصبغ الأداء الاجتماعى والأدبى بنفس الدرجة التى يؤثر بها على الأداء المعرفى فى جانبه التعليمى سواء كمعلم أو كمتلقى، هذا بالنسبة للمدخل العام فى مسألة التصورات وصلته بتطهير البيئة الفكرية، أما تفاصيل المسألة، فسنعرض جزءاً منه فى الفقرات اللاحقة.

(ب) فعالية التوحيد فى تهيئة البيئة الفكرية

بناء على ما سبق تقريره، نركز على بيان أهمية التوحيد فى تطهير البيئة الفكرية، ويستشف هذا الأمر من خلال العمل الكبير الذى يقوم به التوحيد فى جانبى التخلية والتحلية، فعمله عظيم فى تخلية القلب من كل مضادات التوحيد، لا بوصفها من مضادات العقيدة الإسلامية من حيث فحسب، بل لكونها ملوثًا قويًا لأصل الفطرة التى خُلق عليها الإنسان، وبالتالى فهو ملوث للبيئة الفكرية الصحيحة، وتعرض العقيدة الإسلامية حقائق التوحيد لتحلية القلب والعقل بها فى اللحظة نفسها التى تقوم بالتخلية (إفراغ القلب من مضادات التوحيد)، وكل ذلك بمثابة إعداد فكرى لأساس التصور الموضوعى لعالمى الأنفس والآفاق؛ ليتسنى للإنسان التعامل الموضوعى مع عالمى الأشياء والإنسان فى إطار غائية واضحة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بماهية الإنسان (خليفة الله) الراسمة لوظفته الاجتماعية والمحددة لمفهوم حريته المكتسبة بالتكليف.

يوضح المسألة نماذج من مضادات التوحيد، فمثلاً هل يصح أن يكون الكفر أو الشرك

أو النفاق أساس لتحليل الظواهر الكونية والإنسانية، الشرك هو الازدواجية فى الحكم على أشياء من طبيعة واحدة، وكذلك الحال بالنسبة للنفاق، سواء فى بعده العقدى البحث أو من آثاره الأخلاقية المؤثرة فى الجوانب المعرفية، سواء فى القراءة أو تبليغ القراءة أو البحث أو تبليغ البحث؛ لأن النفاق هو اتخاذ موقفين متعارضين اقتضتهما المنفعة (الغنيمة) وليس المعرفة، لهذا يجب العمل على تطهير البيئة الفكرية من مثل هذه الأمراض الخطيرة على التصورات أولاً وأثرها الوخيم على البيئة الفكرية ثانيًا.

وطريق الإصلاح العلم، وتبليغ العلم والعمل بمقتضاه، وأول من يوجه إليه هذا الخطاب من أجل المساهمة فى تطهير البيئة من النفاق هم أهل السلطان فى المجتمع سواء كان هذا السلطان ثقافيًا أو ماليًا أو سياسيًا؛ لأنهم أول المسؤولين عن سيادة التزلّف والتملّق والنفاق فى الحياة العامة[1]، وعلى جميع الصعد الثقافية والفكرية والسياسية والحضارية، ثم يبلغ بعدها أفراد الأمة من معلمين ومتعلمين ووعاظ ومرشدين، وسائر الناس بخطورة النفاق على الأنفس وتلويثه البيئة الفكرية والأخلاقية.

وبهذا الصدد يحسن التنبيه إلى بعض أساليب النفاق فى تلويث البيئة الفكرية:

أساليب النفاق فى تلويث البيئة الفكرية

* الإعراض عن البحث الموضوعى وتعويضه بالاهتمام المهرجانى فى تحصيل العلوم وتبليغها.
* العمل على تمكين الجبن المعرفى من خلال زعزعة ثقة الناس بأنفسهم.
* الاتصاف بالشح المعرفى.
* التخاذل عن نصرة البحث العلمى الموضوعى.
* زرع البلبلة الفكرية من خلال شغل الناس بقضايا ميتة من تاريخنا، بل قد يشغلوننا بما يهدر طاقاتنا فيما لا طائل منه.

(١) انظر فى هذه المعانى: توفيق سيف، مرجع سابق، ص ٣٦٠.

* تأسيس المؤسسات الضرار فى المعرفة، بغرض استقطاب العناصر القلقة المضطربة أولاً، وتشكيك الأذكياء ونجباء الطلبة ثانيًا، أو على الأقل شغلهم عن أصل ما تصرف من أجله الأموال وتتعلق به الهمم[1].

٢- عناصر الإعداد المعرفى

سبق وأن ذكرنا بأن من أهم ملوثات البيئة من الناحية المعرفية، غلبة الجهل، وهيمنة التقليد، ووقوع العقول والقلوب فى هاوية المكبلات الفكرية، مما ولد الاستخفاف وقبوله فى بيئتنا العربية الإسلامية، والذى قد يتلبس بأحادية المنهج فى بعض الأحيان، ومما زاد الأمر شناعة أو تغيب النقد المقاصدى الذى يستحضر دومًا الأساسيات التى تجتمع ويبعد ما يفرق إلى حين (بعد بحث كل ما يلم الشمل).

(أ) الإعداد لمواجهة الجهل

الجهل بوصفه ملوثًا للبيئة الفكرية ينقسم إلى قسمين: أولهما يدرج فيه أولئك الذين لا يعلمون ويعلمون أنهم لا يعلمون -الجهل البسيط-، وثانيهما يندرج فيه أولئك الذين لا يعلمون ولا يعلمون أنهم لا يعلمون -الجهل المركب-، فالأول أمره من أبسط ما يكون إذ يملك فى نفسه استعدادًا أوليًا للتعلم من خلال الاعتراف بالجهل، فما على القائمين على التوجيه إلا التلطّف فى التبليغ المعرفى بغرض تخلية القلوب والعقول من الجهل وتحليتها بالعلم مشفوعًا بجانبه الوظيفى، كى لا تكون المسألة المعرفية فى مواجهة الجهل مواجهة مع الجاهل بقدر ما تكون مواجهة للجهل، أى يجب تحرير الأنفس من العناصر النفسية التى تعيق عملية التبليغ، إذ يعد عدم استحضارها حال التبليغ استفزازًا لملوث من ملوثات البيئة الفكرية.

أما بالنسبة للفريق الثانى (الجهل المركب) فأحسن أسلوب فى تبليغهم، أن يجمع الخطاب بين مخاطبة العقل والقلب فى نفس الوقت وبنفس القوة وفق مسلك القرآن الكريم، ومن رام تجاوز هذا المسلك قد يقضى عمله إلى نقيض القصد، فتشتد كراهية

(١) انظر فى أساليب النفاق، كتاب "دراسات فى السيرة"، عماد الدين خليل.

المنصوحين لأهل التصحيح ويزداد خبثهم ومكرهم، بل يجاوزون ذلك إلى الإصرار على ما يعتقدون وقد يجرون بفعل الاستفزاز قبل التذكير إلى الانفعال الذى يولد عنفًا لفظيًا فى بداية الأمر فيتحول فى قابل الأيام إلى عنف مادى.

والمهمة -حسب تقديرنا- تستدعى تضافر جهود الجميع وعلى رأسهم أهل التعليم والتوجيه والوعظ والإرشاد وأهل السياسة والقانون من خلال منظوماتهم وممارساتهم، ورجال الفكر والثقافة، كل فى اختصاصه، ورغم أهمية عمل الجميع فى تطهير البيئة الفكرية من الجهل وتوابعه، فإن للقرار السياسى الراشد دور أهم ومهمة أعظم فى إصلاح النفوس وتطهيرها من الجهل، من خلال ربط ولاية المناصب وإعطاء المكاسب بالعلم أولا لا بالولاء، وإن كان ولابد من شرط الولاء -كضرورة عملية يقتضيها الانسجام بين المسيرين- فلابد أن يكون بعد العلم لا قبله.

(ب) معالجة هيمنة التقليد

يجب أن يعلم المسلمون أن الإسلام فى حقيقة الأمر هو دعوة مستمرة ودائمة للتحرر من التقليد بالتأصيل، وطريقها المراجعة الدائمة لخبراتنا المتنوعة وخبرات الإنسانية بالوحى كتابًا وسنة؛ لأن الوحى من أهم عناصر تطهير البيئة الفكرية من التقليد، وما جاء الإسلام إلا من أجل تقديم البديل الحضارى المؤسس على الإقناع، والإقناع محرّك أساسى للأداء الحضارى المنتظر لتجاوز التقليد بالأصل.

والتقليد بوصفه من أهم ملوثات البيئة الفكرية لا ينحصر أثره فى جانب على حساب آخر، بل ينسحب على العقيدة بالدرجة نفسها التى ينسحب على المعرفة والسياسة، ولا يتوقف على إحياء أفكار الشرق القديم أو الحديث، بل يشمل أيضًا الدعوة إلى تقليد الآخر من خلال خلع صفات العلمية والحضارية على كل ما يأتينا من الغرب، بالحداثيون مثلاً بدعوى التجديد استبدلوا تقليداً بتقليد، وهم حين يفعلون ذلك يلوثون البيئة الفكرية بدعوى تطهيرها (رمتنى بدائها وانسلت) من التقليد فيرتمون فى تقليد أشنع.

وتجاوز التقليد حسب تقديرنا لا يكون إلا بإشاعة التعليم، وبيان أهمية المصادر الإسلامية فى المراجعة الدائمة للتقليد المعرفى والسياسى والفكرى بغرض التمحيص المستمر لخبراتنا -طبعًا من قبل أهل الاختصاص- والتأصيل لمواجهة التقليد.

قد نجد صعوبة فى مواجهة التقليد لا تقل عن الصعوبة المنتظرة فى مواجهة الجهل؛ لهذا يجب استصحاب متعلقات التقليد حين صياغة الخطاب العلمى والتوجيه الذى يصلح التقليد بالتأصيل، ولعل من متعلقاته الأسرة، والسياسة، والمنفعة المادية والمعنوية، والهيبة الاجتماعية، ومن ثم كان الارتباط بهذه الأمور من ملوثات البيئة الفكرية حال تمكنها الكلى من النفس والقلب، بحيث يصبح القول ما قال المقلّد -بفتح اللام-، وما قال المقلد فصدقوه، ومن نافلة القول التأكيد على تجنب جعل المطارحة التربوية فى التقليد مسألة يراد بها كسر شوكة فلان أو علان؛ لأنها لا تزيد المقلد إلا تشبثًا بأفكاره السابقة، فيفضى العمل التوجيهى حين فقده لتلك الشروط النفسية إلى نقيض المقصود، فيزداد التقليد شناعة دفاعًا عن مكتسب أو جلبًا لمنفعة؛ لأن الدفاع عن التقليد ليس قضية معرفية بقدر ما هو قضية منفعية سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو فكرية.

(جـ) تحرير العقل والقلب من المكبلات

يتجلى تحكّم المكبّلات فى القلب والنفس البشرية فى عدة صور، أولها الاستخفاف المعرفى أو قبوله، وثانيهما أحادية المنهج المحكّمة فى جميع العلوم:

- **التحديد الدقيق للمصطلح:**

يراد بالمكبلات: المعارف المسبقة التى تحول دون القراءة الموضوعية للأفكار القابلة والحاضرة، فتكون تلك المعارف بمثابة محدد لمنهج القراءة، بل قد تطال موضوع القراءة نفسه، فينظر إلى المعارف من منطلق المعارف السابقة، وفى كنفها؛ لأن المكبّل بتلك المعارف يكون مقيّد الإرادة موجّه الاهتمام، مثاله من يريد أن يفهم العالم من خلال قريته أو مجتمعه أو من يروم فهم عالم الأفكار من فكرة معينة يحكم إليها جميع المنتجات الفكرية، وهو بهذا لا يختلف عمن رأى فأرًا ثم كف بصره فإذا سئل عن سور

الصين قال كم يعادل من فأر، ولهذا كانت المكبلات الإيديولوجية أو الفكرية ملوثة للبيئة الفكرية، يجب العمل على تطهير البيئة الفكرية منها بطريق تربوى راشد، ومواجهة هذا الأمر تقتضى قطع الطريق على كل ما من شأنه تطبيع هذا الأمر أو تذكيته، فيعمل المثقفون على تكريس استهجان هذا المسلك فى الأوساط العلمية ثم الشعبية.

ومن مظاهر المكبلات الرواسب الفكرية المتلبسة بالاستخفاف المعرفى حينًا وأحادية المنهج فى تحصيل العلوم أو تبليغها، من هذا المنطلق سنتناول عرض المسألتين فى سياق الحديث عن المكبلات.

• **الاستخفاف المعرفي أو قبوله:**

كثيراً ما يكون الاستخفاف بالآخر من متطلبات الحيلولة دون وصول الآخر إلى عمق الفكر الذى يراد فرضه على الساحة العلمية والحضارية، فيكون الضغط الأدبى سببًا فى إبعاد الناس عن المناقشة الموضوعية من خلال الاستخفاف بهم بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر، وبهذا يمكن تلويث البيئة الفكرية بوصفه مانعًا من القراءة الموضوعية للمسائل المعروضة للنقاش.

والاستخفاف ليس شنيعًا حالة صدوره عن الجهلة؛ لأنه ليس غريبًا صدور مثل هذه الأفعال عنهم، ولكن شناعته تكمن فى صدور مثل هذه الأفعال عن أهل الفكر والثقافة والسياسة؛ لأنهم بصنيعهم هذا يسهمون فى تمكين الاستخفاف بالعلم والفكر من ضمير الأمة وبهذا يساعدون على تلويث البيئة الفكرية.

والاستخفاف آنف الذكر لا يقل شناعة عن قبول الاستخفاف المعرفى بوصفه استجابة إرادية لمستخف؛ لأنه وسابقه يهيئ لتلويث البيئة الفكرية من خلال خلع نوع قداسة على أشخاص معينين، ولتجاوز هذا الداء يحسن أن لا يأخذنا فى المعرفة والفكر لوم لائم، فنبحث الأفكار والمسائل بكل موضوعية غير آبهين بمستخف أو قابل له، وبذلك نساهم فى تطهير البيئة الفكرية من هذه الأمراض الفتاكة، فنكون خير أنموذج

معبر عن بطلان أفكار المستخفين (مهما كانت مناصبهم ومكاسبهم) بالعلم والفكر، وأنموذجًا عمليًا لتربية القابلين للاستخفاف بغرض إخراجهم مما هم فيه.

• أحادية المنهج:

يتصور بعض الباحثين أن اندراج مواضيع مختلفة تحت اسم العلم يقتضى اشتراكًا فى منهج الدراسة، وقد تمثل هذا الرأى المعجبون بالفلسفة الوضعية ردحًا من الزمن، ورام تحقيق هذا المسلك رواد الفلسفة المادية، إذ حاولوا تحليل كل الظواهر الإنسانية والكونية فى إطار هذه الرؤية الفلسفية، رغم علمنا يقينًا بأن تعدد موضوعات العلوم يقتضى تعددًا فى مناهج تناولها، فلا يمكن تطبيق المناهج التجريبية على القضايا الغيبية؛ لأنها ليست من طبيعة مخبرية، أو تحكيم مناهج المحدثين فى الخبرة الصوفية، أو تطبيق المنهج الصوفى فى قبول التحديث أو رفضه، إن التعداد المنهجى فى تناول العلوم ودراستها حقيقة واضحة حتى فى الموضوع الواحد من العلوم، مثاله بحث مسائل الكلام على مشرب المعتزلة يختلف عن طريقة بحثه لدى الأشاعرة وهو بدوره متميز عن ما هو عند غيرهم كابن تيمية و.. وهكذا فى سائر مباحث المعرفة سواء فى العلوم الإسلامية أو فى غيرها.

وأظهر أنموذج فى أحادية المنهج التى يراد فرضه فى عالمنا الإسلامى تصوير البعض أن طريق الخروج من التخلف إلى التقدم هو الطريق الذى رسمه الغرب ممثلاً فى أمريكا مصدقين ما قاله أحدهم: "إن الأنموذج الأمريكى فى السياسة والحكم هو النهاية العظمى لما يمكن أن يبلغه الفكر، فهو بمثابة الأنموذج النهائى المطلق الذى يجب أن يقتدى به كل من أراد التنمية والانعتاق وحقوق الإنسان... إلى آخر الموشح".

وهذا ليس مستغربًا صدوره من مثل هذه القوى؛ لأنها بذلك تدافع عن مصالحها الحضارية والفكرية بواسطة تخلية الأفكار من عناصر المقاومة ثم تحليتها بالعناصر التى يراد تحليل تاريخ الإنسانية ومستقبلها فى كنفه؛ لهذا يجب العمل بجد على تطعيم أبنائنا بالفكر والعلم لمواجهة مثل هذه الملوثات الفكرية بوصفها مانعًا قويًا -حين

التسليم بها- من التفكير الصحيح، وموجهًا للفكر نحو البحث فى قضايانا والحيلولة دون بحث قضايا أخرى.

كما يجب العمل على منع قبول فرض هذا الأنموذج الفكرى على عالمنا الإسلامى؛ لأن تمكين هذا الداء من الأمة سيحول دون التفكير فى انطلاقة حضارية أصيلة لأنها ستأتى على عناصر المقاومة الفكرية من الأساس وفى ذلك أكبر الخطر على حاضر الأمة ومستقبلها.

(د) غياب النقد المقاصدى

يهيمن على عملنا النقدى فى ميادين الفكر والسياسة التعلق باستعراض القوة الخطابية حينًا والمادية حينًا آخر، فننقد للنقد استنصارًا للنفس ورغباتها ونزواتها (قد يصبح العمل النقدى أشبه بالعبث المختصر أساسًا فى قتل أوقات الناس فيما لا طائل منه)؛ لهذا يغيب السؤال عن مقاصد النقد وأهدافه، لماذا النقد؟ وما هو موضوعه فى البناء الحضارى المنشود؟ وهل يحقق ما يهدف إلى تحقيقه؟

وتعود الغفلة عن الرؤية المقاصدية فى التحليل والنقد إلى عدة عوامل، يتلخص بعضها فى عناصر معرفية، ويعود البعض الآخر إلى عناصر نفسية، فالعناصر العلمية تختزل فى غياب المراقبة الذاتية بطريق التساؤل الموضوعى الذى يتوخى إعطاء الناس حقوقهم أو على الأقل عدم الوقوع فى ظلمهم معرفيًا واجتماعيًا (ولأن يخطأ أحدكم فى الصفح أحسن من أن يخطأ فى الظلم)، وهى بدورها تعود إلى إهمال القراءة الوظيفية المستمرة لجهود الآخر وفق ما يريد تصويره لا وفق فهمنا لجهوده، أى يجب موضوعيًا استصحاب أجواء الحمل بالأفكار وظروف ولادتها؛ لأننا حين استصحاب ذلك سنلتمس العذر لأصحابها وإن خالفناهم فى تبنيها جملة وتفصيلاً، وفى ذلك أقصر طرق التواصل المعرفى المطهّر للبيئة الفكرية من التشنج والنقد الانفعالى، والمؤسس للتواصل الاجتماعى والتعاون الحضارى.

ولتطهير البيئة من هذا الوباء، يحسن استحضار التساؤل عن المقاصد فى المراحل

التى يقطعها الفكر بدءاً بالإجابة الدقيقة عن سبب التطلع إلى النقد، ثم رسم خطة مضبوطة لتحقيق المراد المشروع من النقد، بشرط أن تتصف بالعلمية جميع المراحل التى يقطعها الفكر من المقدمات إلى النتائج، ولا شك أن ذلك سيحقق مجموعة لا يستهان بها من العناصر الضرورية التى تعد بمثابة تطعيم للنفس من مثل هذه الأدواء، فيهيئ هذا العمل لقبول الآخر من الناحية الفكرية، وهو المسلك الأول والأساسى لاستقطابه على مستوى الفعل الاجتماعى للمساهمة فى البناء الحضارى المنشود.

إن النقد المقاصدى -حين الإجابة الموضوعية عنه- سيحرر النفس والعقل من كثير من الأمراض، ويحرر القلب من الانشداد إلى الدنيا والاستبداد وحب الرياسة والتطلع إلى غلبة النفس على حساب الحق والحقيقة. كما يحرر العقل من الأفكار المسبقة والأحكام الجاهزة، ويشجعه على البحث الفكرى الهادئ الهادف دون خوف أو وجل، يتوخى فى كل ذلك مرضاة الله -سبحانه وتعالى- وفى ذلك أكبر ضامن للموضوعية المتباهى بها بين الأمم والشعوب؛ لهذا كانت التقوى فى جانبها المعرفى أحسن مظهر للبيئة الفكرية من مثل هذه الأوبئة.

٣- الإعداد النفسى

تعد العناصر النفسية من أهم المؤثرات على الأداء الفكرى؛ وذلك بسبب مساهمتها فى البيئة الفكرية سلبًا وإيجابًا، فقد تكون مطهرة كما يمكن أن تكون ملوّثة، فالفكر وإن كان ثاقبًا لا يمكن أن يحقق مقاصده ما لم يكن وعاء الشعور (الوجدان) سليمًا معافى من أمراض تحول دون تحقيق الفكر لأهدافه وغاياته، فالعناصر النفسية تحد من فاعلية الفكر بنفس القدر الذى تكون به سببًا فى انطلاقه، وهذا بقدر تحرر النفس من معوقات الإشهاد على الناس من الناحية المعرفية والحضارية والسياسية.

(أ) التعلق بالدنيا:

الصراع الحضارى والسياسى يستعمل الصراع الفكرى وسيلة لتحقيق المراد، وأساس الصراع الحضارى الرغبة فى الغلبة -دولة على دولة أو حزبًا على حزب أو

شخصًا على شخص..- هو العمل على الاستحواذ على الدنيا وملذاتها، يفسر هذا الأمر الصراع القائم فى كثير من أصقاع العالم، كما يمكن أن يكون الصراع بسبب إرادة بسط نفوذ جماعة على حساب أخرى بغلب بفرض رأى على رأى بواسطة طالبى الدنيا.

لهذا عملت بعض السلط السياسية والثقافية على تمليك التوجيه الفكرى بقرارات رسمية لشخصيات مخصوصة إما لكفاءتها الأكاديمية أو لأقدمية اكتسبوها فى ميدان التعليم والبحث، ولعل من أشنع الصور أن يقع التوجيه فى أيدى غير أمينة مشهورة بالتقصير، إذ فيهم من لا يرد فى بلده يد لامس فذهب إلى أوروبا وأمريكا فأخذ شهادة مزورة يظهر أنها كتبت له لا يدرى خباياها وكأن الغربيين بتواطؤ من المحليين حمّلوا الدكتوراه سفاحًا[1].

ويظهر القصور فى الأعمال الفكرية لطلاب الدنيا من المناحى الآتية:

• إهمال الواجب التوجيهي:

حصر هذا النمط من المفكرين واجباتهم فى كلمات تؤدى بقصور أو وفاء، ثم يقبعون فى بيوتهم بعد ذلك، لا ينصرون حقًا ولا ينشئون جيلاً[2]، تنازلوا عن دورهم فى صناعة المجتمع، بل راموا تلويث بيئته الفكرية بتمكين حب الدنيا وكراهية الموت.

• ممارستهم للتضليل:

يكره العقلاء مثل هذه الأعمال ويدعون إلى محاربتها، وفى ذلك أردد معنى قول أحد أعلام الدعوة[3]: "إنى أكره الشيوخ والمفكرين الذين يسترضون الرؤساء بالفتاوى الجهلاء، وتوجيهاتهم الغبية، إنهم يدورون فى الساحة السياسية (البرلمانات ومجالس الحكومات.. وفى الجامعات والكليات)- بذممهم كما يدور سائقو سيارات الأجرة بعرباتهم يتلفتون، هل من راكب، فبّحهم الله وقبّح من كلفهم، وقبل منهم"[4].

(١) "قصة حياة"، ص١٦٦-١٦٧ (بتصرف).
(٢) المصدر نفسه، ص١٦٨.
(٣) محمد الغزالى السقا -رحمه الله-، توفى بتاريخ ١٢ مارس ١٩٩٦م.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٢٦.

• جعلوا الفكر معيباً بتصرفاتهم

استمد الذين اتهموا الفكر والمفكرين بعدم الفاعلية فى التغيير من تصرفات أولئك الذين حملوا الفكر ما لا يطيق لا فى بلاد العرب وحدها بل فى أقطار أخرى، إنهم يسخّرون رجال الفكر لهوى الرجال والنساء، واخترعوا أفكاراً -تزلّفًا وطلبًا للدنيا- لا يقبلها من له ذرة عقل وشهامة، وما كسبوا بذلك إلا غضب الله -سبحانه وتعالى-، وكراهية الصالحين من عباده، وازدراء الجماهير المغلوبة على أمرها. ويحق فى هؤلاء المفكرين قول أحمد محرم فى بعض علماء الدين:

أرى علماء الدين لا يحفظونه ... ولا يرفعون اليوم رايته العليا

هم اتَّخذوا ما أحرزوا من علومه ... سبيلاً إلى ما يبتغون من الدنيا

إذا ما أتاهم جاهل بضلالة ... أتوه بألفى عالم يحمل الفتيا

• المساهمة فى تفريق الأمة:

يعمل هذا الصنف من العلماء على شغل الناس بقضايا نظرية عفى عليها الزمن أو خلافات فرعية لا يجوز أن تصدع الشمل أو تمزق الأهل"[1].

ونظراً لما لتلك التصرفات من أثر جسيم على حاضر الأمة ومستقبلها محليًا ودوليًا، عمل كثير من العلماء وألحوا على ضرورة إبعاد مثل هؤلاء المفكرين من ضمير الأمة، والسعى إلى حيلولة دون هيمنتهم على ميدان التوجيه، وبهذا الصدد يحسن إبعاد الأصناف الآتية:

* يقصى من ميدان الفكر العلماء الذين يحرقون البخور بين أيدى الساسة المنحرفين ويزينون لهم نكوصهم ومجونهم.

* يقصى من الميدان نفسه أيضًا الذين يشغلون الناس بقضايا نظرية ميتة عفى عنها الزمن، كما يلحق به النافخون فى الخلافات الفرعية التى كان من المفروض أن لا تصدع الشمل أو تمزق الأهل.

(١) "علل وأدوية"، الغزالى، ص١٠٨.

* يلحق بالقائمة السابقة العلماء والمفكرون الذين يظلمون الفكر بسوء الفهم، ويرونه فى السياسة والحكم والمال ظهيراً للاستبداد والاستغلال وإضاعة الشعوب[1]، بسبب تعلقهم بالدنيا ومطالبها، ومن تعلّق بالدنيا فتن بها وأسرته، فلا يقرأ بموضوعية ولا يوجه بموضوعية؛ لأن موضوعيته نسبية تدور حيث تدور الغنيمة، وحيث تكون المطالب الدنيوية محققة فى أكمل صورة فثم الموضوعية.

وأصدق علاج لها النسج على وفق نسق التذكير القرآنى الجامع بين مخاطبة الوجدان والعقل، أى التذكير العقلى المخاطب للفكر والقلب فى اللحظة نفسها؛ لأن طالب الدنيا لا دواء لمرضه غير محاولة ربطها بهدف أخروى يوسع من الدنيا ويجعلها مسرحًا للاستكثار من الخير ودافعًا -بالنظر إلى زوالها المرتقب- لاستثمارها فى الخيرات بغرض طرد خوف الفناء بطلب البقاء عند الله -تعالى-، فما قدم لله تعالى بقى وما قدم لغيره فنى، إنك يا طالب الدنيا بالفكر قد أسرت تفكيرك وعرضته للبيع بأبخس الأثمان، فكان الأصل أن يكون تفكيرك وسيلة لتحريرك وتحرير غيرك فكيف تجعله مطيّة لأسر نفسك وفكرك وغيرك؟

(ب) دواء الاستبداد وقبوله:

الاستبداد الفكرى ظهير الاستبداد السياسى والاجتماعى، بل يعد الاستبداد السياسى والفكرى توأمان كل واحد منها يعد طريقًا للآخر، وكلاهما يحمى بالتنظيمات القانونية والسياسية..؛ ولهذا فالاستبداد خطير بصفة عامة، ولكنه يزداد شناعة حال تلبسه بالدين، لصعوبة تحرير النفوس منه؛ لأنهم يتصورون تحرير الأنفس منه عملاً على تحريرها من الالتزامات الشرعية.

لهذا يعمل فقهاء السلاطين على ترسيخ القول بأن لا فائدة مرجوة من الحرية والمساواة؛ لأنها -حسب تقديرهم- نقض للمحرمات الرسمية (ليست الشرعية) وتشكيك فى التقاليد ومساواة بين علية القوم وسفلتهم.. وهكذا تصور الدعوة إلى

(١) "هموم داعية"، الغزالى، ص١٠٨ وما بعدها.

الحرية دعوة إلى الفوضى، حتى ليغدوا الاستبداد فى صورتيه السياسية والفكرية أرحم على الأمة، بل وقد يكون فى تصريحات المتزلفين ما يدل على أن الاستبداد أكثر انسجامًا مع الطبائع البشرية، رغم علم كل العقلاء أن الحرية من لوازم الإنسانية ومن أسس التشريع وأساس التكليف(١).

وحال الاستبداد الفكرى لا يختلف حسب تقديرنا عن قبوله؛ لأن المطيع للمستبد لا يقل جرمًا عن المستبد نفسه، وما استبد من استبد إلا بمساعدة وتشجيع مباشر وغير مباشر من قبل القابلين لأفكاره وتوجيهاته.

ولتجاوز هذين المرضين الخطيرين يجب ترويض النفس على التزام الرؤية الموضوعية المبنية أساسًا على تقوى الله -تعالى- وطاعته، ولا يتأتى لها تحقيق مقاصدها بغير معاندة الهوى واجتناب الشبهات والتورّع عن المآثم صغيرها وكبيرها، حتى يحصل الباحث المسلم على ملكة التقوى والعدالة(٢)، وتجتمع فيه الأوصاف التى قررها الشارع الحكيم، وأقرب ما يحقق به تجاوز الدائين التذكر الدائم للتكريم الإلهى مع كونك مخلوقًا تابعًا لخالقك فى أصل خلقك وبقائك ومصيرك، إذ بالشق الأول يطرد قبول الاستبداد من النفس، وبالثانى يمنع الاستبداد، وأحسن ما يبلغ به هذا المضمون العقدى الجمع بين مخاطبة العقل والقلب فى ذات الوقت.

(جـ) طرد روح التسليم

التسليم المطلق للغالب السياسى أو الفكرى أو الحضارى من بنيات قبول الاستبداد بجميع أشكاله وأنماطه، والتسليم بالتسليم محاولة لتطبيع الوضع غير العادى بواسطة تكرار الأمور بغرض إقرارها والتسليم بها ولها، حتى يصبح التفكير بتغيير الوضع غير العادى فعلاً غير عادى، هذا مجرد التفكير أما مباشرة ذلك فيعد لدى البعض من أشنع المنكرات.

ونظرًا لتطبيع الوضع غير العادى يصبح العمل على تنقية البيئة من هذا المرض من

(١) انظر: توفيق سيف، مرجع سابق، ص ٢٧٥-٢٧٧ .
(٢) المرجع السابق، ص٣٥٩.

أصعب الصعوبات، إذ كلما رام المفكرون تجاوز هذا الداء واجهتهم عقبة كأداء أقام أركانها المستفيدون من الوضع غير العادى.

تبدأ عملية إصلاح الوضع لتجاوز هذا الملوث ببعث المساءلة الموضوعية عن أصل المسائل المسلم بها ومقصد التسليم بها، هل يعود إلى الإكراهات الواقعية أم يعود إلى محاولة إخراج بعض القضايا من دائرة الحوار إلى دائرة المحظور الذى يحرم بحثه والتفتيش فى أصله؟

ويحسن حين عرض المسألة تجاوز طرح القضية فى جو التشنجات والانفعالية، بل يجب تهيئة الجو الهادئ والظروف العادية التى لا يحس فيها المحاور (بفتح الواو) بأنها قضية شخصية غرضها تجاوز طرح القضية فى جو التشنجات والانفعالية، بل يجب تهيئة الجو الهادئ والظروف العادية التى لا يحس المحاور (بفتح الواو) بأنها قضية شخصية غرضها إثبات عجزه وقلة حيلته، بل يجب أن يعمل على إقناعه بأن من مصلحته بسط البحث فى القضية بشكل موضوعى، وليكن الغرض المنبنى -على الأقل من الناحية النظرية- من الحوار أن يقنع أحد الطرفين الآخر؛ لأنه بهذا يدرك بأنه دخل ومحاوره ميدان النقاش على قدم المساواة، وهى أقصر طرق تهيئة النفوس للحوار الهادف الهادئ.

٤- اكتساب عناصر التربية الفكرية

تكتسب عناصر التربية الفكرية بالتعلّم والتذكير التربوى والتعليمى، وتنقسم هذه العناصر إلى نمطين أولهما يشمل العناصر النفسية فى التربية الفكرية، ويضم الثانى العناصر المعرفية فى التربية الفكرية:

(أ) العناصر النفسية:

تبليغ المعرفة أو تعلمها يفرض توفر شروط تعد بمثابة بث الاستعداد النفسى للتعلم والتبليغ، وفقد هذا الاستعداد من أبرز موانع تحقيق المقصد من العلم والتفكير.

يُخلَق الإنسان مزوداً بهذه العناصر النفسية إذ هى كامنة فى النفس الإنسانية، فإما

أن تنميها التربية الفكرية والمنظومات الاجتماعية والقانونية، فتخرجها من طور القوة إلى الفعل أو تفجرها فتقضى عليها فى مرحلة التعليم الابتدائى، ويرسخ الحكم عليها سائر مراحل التعليم، وما دام أمرها كذلك فيجب العمل على مساعدة الإنسان على اكتشاف نفسه من خلال إخراج استعداداته النفسية من طور القوة الكامنة إلى القوة الحيّة الفاعلة، وطريق ذلك تذكيره بقوته من خلال ترسيخ فكرة التكريم الإلهى المربوط أساسًا بكرم الله تعالى على الإنسان.

أيها الإنسان، لقد خلقك الله -تعالى- حرًا بالتكليف فأكسبك قدرة وإرادة ورغبة، فإذا أردت الحفاظ على قوتك وإرادتك فيجب التحكم فى رغبتك.

إن أول مراحل التغيير النفسى العمل على أن تكون الرغبة على وفق مراد الخالق عز وجل، وإذا تحقق هذا المقصد سهل بعدها استعمال الإرادة فيما تشتهى النفس، كما يسهل فى ذات الوقت إعمال القدرة فى سبيل ما رسمته لنفسك حين حررت رغبتك من وأدها العملى.

إن أول ما يظهر البيئة الفكرية تحضير الشروط النفسية المتحكّمة فى الإنسان من الداخل سلبًا وإيجابًا، فإذا اكتشفها الإنسان وأعملها فيما جعلها خالقها له حققت مقاصدها أو قربت منها على الأقل؛ لهذا نعمل على تذكير الناس بقدراتهم الكامنة التى خُلِقوا مُزَوَّدين بها لغرض وظيفى منسجم مع ماهية الإنسان ووظيفته الاجتماعية ورسالته الحضارية.

(ب) العناصر المعرفية من التربية الفكرية

لا يمكن أن تحقق العملية الفكرية نتائجها المنتظرة بسلامة الإعداد النفسى البحت، إذ يجب مع ذلك توفر شروط معرفية لا تقل أهمية عن العناصر المشار إليها أعلاه، فحتى وإن اكتشف المسلم قوته الكامنة من الناحية النفسية فهذا لا يغير من المسألة شيئًا، إلا إذا واكب هذا الإحساس موقف عملى لتحقيق المرغوب الموافق للإرادة، فهل يتحقق المرغوب بسلامة الشروط النفسية وحدها؟

والأصل أن يترجم اكتشاف الاستعدادات النفسية فى التربية الفكرية إلى موقف عملى يترجمه التزود بالمعرفة وتبليغها ومناهج دراستها، من هذا المنطلق تنصب جهود الباحثين والمفكرين على إشباع حاجة الإنسان إلى المعرفة الوظيفية، ولا يتأتى تحقيق المراد من المعارف المكتسبة إلا إذا أحاط المفكر بمسالك تبليغها وقبل ذلك يجب أن يدخل تلك العلوم من أبوابها من خلال قراءتها المنهجية المنسجمة مع طبيعة ذلك العلم، وبهذا تشمل التربية الفكرية القضايا الآتية:

• **العناصر المتعلقة بموضوعات العلوم**

يجب على من يتصدى للدراسات الفكرية أن يحيط بمواضيع المناقشة تفوق إحاطة أهلها أو تساويها على الأقل؛ لأن المفكر الرسالى يربى من خلال الحوار والتربية، وهذا يقتضى العلم والصبر على البحث والمناقشة، فلا يجوز شرعًا وعقلاً الحكم على قضايا ومسائل لا سابق علم لنا بها، إذ يعد هذا العمل ملوثًا للبيئة الفكرية، ومانعًا قويًا من الاستفادة مما يقول فضلاً عن كونه من أهم عناصر الإقناع بنقيض المقصود، فمن رام الإقناع بالحوار الفكرى فلا يتحدث فيما لا يعرف.

وهذا التصدد كثيراً ما يلوث البيئة الفكرية من خلال الخوض بجهل فى قضايا فى منتهى التعقيد، فنجد أحدهم ينقد السياسة والتربية والتعليم والاجتماع مع علمنا بيقين بأنه لم يقرأ كتابًا واحدًا فى الباب، بل نقد أحدهم كتابًا لم يقرأ منه سطراً واحداً، وقصارى ما قرأه نتف نقلت منه فى جريدة أو سمع عنها تعليقًا فى إذاعة أو تلفاز، وهكذا يكون عدم المعرفة بمواضيع العلوم ملوثا قويًا للبيئة، ولتجاوز ذلك يجب بعث المطالعة الواعية فى المجتمع سواء كانت فى وعاء مكتوب أو مسموع أو مرئى، المهم أن تشيع فى الأمة القراءة الهادفة، وبذلك نشرك كل أفراد الأمة فى عملية المقاومة الفكرية، وبالتالى يشترك الجميع فى الذود عن ميراثنا الثقافى والحضارى، فيكون جميع أفراد الأمة فى الصفوف الأولى للمقاومة الفكرية التى هى أساس المقاومة الاقتصادية والاجتماعية والحضارية.

• العناصر المتعلقة بالمناهج

فقد مناهج الدراسة الموضوعية ملوث للبيئة الفكرية، إذ يفضى إلى دخول ميادين العلوم من غير أبوابها، فيكون الحوار فى مثل هذا الجو أشبه بحوار الطرشان، من هذا المنطلق ينبغى أن يكون الحرص على التمكّن المنهجى بنفس درجة الحرص على تحصيل العلوم على الأقل.

وتحقيق هذا الهدف يوجب التفريق الدقيق بين ميادين العلوم من خلال التمييز بينها من جهة المناهج، فتنوع مواضيع العلوم يقتضى تنوعًا فى مناهج دراستها، ويحسن فى هذا السياق دراسة هذه المناهج من خلال مؤلفات أهلها لا بالواسطة كما هو شأن كثير من المتطفلين على عالم الفكر، وبهذا الصدد يعد التمرّس بالمناهج من أنفع طرق استثمار المعارف فى الحوار والمطارحات الفكرية، إذ يكسب الاشتغال به التعامل المنهجى مع العلوم ثم بطول التمرس يصبح ملكة لا يمكن الانفكاك منها حتى فى الأوضاع العادية.

• العناصر المتعلقة بالأسلوب

يقوم الأسلوب الفكرى الفاعل على الحوار كمبدأ لا يمكن تجاوزه أو التنازل عنه، فالحوار طريق تحصيل القناعة الذاتية المرتكزة على الحجة والبرهان[1]، وهو طريق إبطال الأقوال الفاسدة والأحكام الخاطئة ثم تصحيحها، ولتحقيق هذه المقاصد ينبغى السعى إلى توفير شروط موضوعية فى الحوار أسلوبًا وموضوعًا. وينبغى فى المتحاورين التحرر الكلى من الأحكام المسبقة والضغوط النفسية؛ لأنه بمثابة توفير الأجواء الضرورية للتفكير المستقل[2]. وتحقيق هذا الهدف يفرض توفر عناصر تكميلية منها على سبيل المثال لا الحصر:

(١) انظر: "الحوار فى القرآن"، محمد حسين فضل الله، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، ص٣١.

(٢) المرجع السابق، ص٤٤.

* مخاطبة الناس بما يفهمون، فقد نجد المفكر يتباهى بعدم قدرة الناس على فهمه، رغم أن هذا العرض دليل على عدم فهم المبلِّغ، وليس دليلاً على قصور فى المبلَّغ.

* الحوار بالتى هى أحسن﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن﴾؛ لأن المجادلة بالتى هى أخشن دليل الاستبداد الفكرى من جهة، وهو نوع من الضغط المفقد للحرية كشرط أساسى فى البحث الفكرى الجاد.

* المسألة الفكرية ليست من قبيل المسائل العقلية الصرف، بل يجتمع فيها العنصر المعرفى بالعناصر النفسية بحيث يصعب التفريق بينهما من الناحية العملية (وإن كنا نستطيع التمييز بينهما من الناحية النظرية)، من هذا المنطلق سيضطر الباحث الرسالى إلى التذكير وفق أسلوب القرآن الجامع بين إقناع العقل وإخضاع القلب، وبذلك تظهر البيئة الفكرية فى عناصرها الداخلية والخارجية من الملوثات.

خاتمة

حاول الباحث تقصى ملوثات البيئة الفكرية فى إطار التصور التوحيدى الشامل، فالتوحيد هو أساس التصورات الإسلامية، وهو قوتها الدافعة الفاعلة فى ضبط علاقة الإنسان بخالقه أولاً والكون ثانيًا، وعلاقته بأخيه الإنسان ثالثًا، وكان ذلك مطيّة لإثبات فاعلية التوحيد فى صلاح البيئة الفكرية، انتقلت بعدها إلى حصر الملوثات المتعلقة بالمعرفة ولخصتها فى الجهل والتقليد والرواسب الفكرية المتمثلة فى الاستخفاف المعرفى أو قبوله فى بعض الأحيان، وأحادية المنهج أحيانًا أخرى، كما تفسد البيئة بغياب النقد المقاصدى.

واقتضى عرض تلك الملوثات بيان المفسدات النفسية للبيئة الفكرية، فكان من أهمها التعلق بالدنيا، والاستبداد وقبوله وهيمنة روح التسلى، وفقدان عناصر التربية الفكرية فى جانبيها النفسى والمعرفى، وختمت المداخلة بالحديث عن الإعداد الفكرى لمواجهة الملوثات، وقسمتها على وفق ما سبق تقريره.. وكل ذلك من أجل تقديم تشخيص موضوعى لملوثات البيئة الفكرية، ثم تقرير الدواء حسب ما بلغه اجتهادنا، وانتهينا بعد البحث إلى النتائج الآتية:

الإنسان هو أهم عناصر البيئة الفكرية، ففساده الذاتى إفساد للبيئة الفكرية، ومن ثم يجب العمل على عدم تلوث بيئته الذاتية الأصلية، وإذا ما لطخت بمثل هذه الأمراض فيجب العمل على بعث تطعيمه الفكرى من جديد، وطريقة ترسيخ فاعلية التصور التوحيدى فى تطهير البيئة الفكرية، ثم العمل بعد ذلك على تحقيق الإعداد المعرفى الجاد، فيجابه الجهل بالعلم، والتقليد بالتأصيل، والتحرر من هيمنة المكبلات بالتذكير العلمى وبذلك نجاوز عقليتى الاستخفاف وقبوله، ومن ثم تطلق أحادية المنهج الدالة على قلة العلم والحيلة، ويحضر النقد المقاصدى، ولا يتأتى لتلك العناصر أن تؤتى أكلها ما لم يكن الإنسان مستعداً نفسيًا للتعلم والتبليغ

الهادفين، فتكون تلك الغائية من أهم عناصر الإعداد المحررة من الدنيا كغاية نهائية للوجـود الإنساني، وإذا تحـرر الإنسان منهـا قام بـالواجب، ولا يمكنه الدوام على ذلك إلا إذا جمع إلى الـفكر الذكر، وطريقة اكـتسـاب عناصر التربيـة الفكرية في شقيها النفسي والمعرفي بما يـوجب المراقبة والتكوين المستمرين في العلوم والمناهج وأساليب عرضها.

* * *